العمل الثقافي من أجل الحرية

تأليف
باولو فريري

ترجمة
خليفة العزابي

العمل الثقافى
من أجل الحرية

العمل الثقافى من أجل الحرية

تـأليف
باولو فريرى

ترجمـة
خليفـة العزابى



المركز العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
طرابلس - الجماهيرية

الطبعة الأولى

هاتف: 40705 · 45565 ـ مبرق: 20032 - 20668
ص.ب: 80984 ـ طرابلس ـ الجماهيرية

تقديم

إن ظاهرة تحرر إنسان عالم الجنوب تشكل أقوى العوامل المؤثرة فى حركة الإنسان المعاصر وتعطى للحركة الإنسانية مضمونها ، وتجسد وعى الإنسان لذاته ، وكذلك تعبر فى ذات الوقت عن كل طموحات الإنسان المنبثقة عن اختياره الثورى والتى تهدف إلى الحرية كاختيار يرتضيه الإنسان لنفسه وللعالم الذى يصنعه .

ولكن فقط بالمخاطرة بالنفس تتحقق الحرية للإنسان ، الأمر الذى جعل من ظاهرة التحرر ظاهرة ثورية جماهيرية ـ الثورة إعلان عن الحرية ـ تعطى موضوعياً لحركة الإنسان معناه الواقعى والعقلانى ، وتعبر عن كل طموحاته المتجسدة فى الإدانة المنبثقة عن حركة الإنسان ذاته بذاته ومن

خلال اختياراته هو كإنسان ، والمتمثلة فى الثورة العقائدية التى ارتضاها كأداة نضالية يقتحم بها واقعه ، ويؤكد بها ومن خلالها تحرره ، ويواجه بها ومن خلالها الاستلابات الفكرية والسياسية والاقتصادية التى مارستها وتحاول تكريسها فيه القوى السالبة ـ عالم الشمال ـ لتمتلك من خلال ذلك التكريس كل الإمكانات التى تعطى لوجودها شرعية الاستمرار فى استلاب الإرادة والتحكم والتوجيه وفرض لغة الصمت .

واتسمت ظاهرة التحرر وأداتها الثورية بسمة الرفض للمناهج الفكرية التى تحاول بالمقابل القوى السالبة فرضها على مجتمعات عالم الجنوب عبر منظورها الفكرى المتمثل فى الطمس الإجبارى لمواهب الإنسان وقتل روح الإبداع والتألق فيه ، وكذلك التوجيه الإجبارى والتجهيل الإجبارى لمواهب الإنسان وقتل روح الإبداع والتألق فيه ، وكذلك التوجيه الإجبارى لأساليب من صنع أدوات الحكم قصد صب الإنسان فى قوالب مرسومة تمكنها من جعل الإنسان طوع إرادتها ، يتقبل قراراتها وقوانينها وكأنها قدر . .

وعلى ذلك فإن الرفض العقائدى للمناهج الفكرية الموروثة عن التطور الليبرالى والشيوعى كان يجب أن يكون رفضاً إيجابياً يستجيب للتغيرات الفكرية التى تحددت بسيطرة الإنسان على اللامتناهيات الصغرى والكبرى والمركبة مثل الذرة والفضاء والعقول الألكترونية . ومع ذلك قد أثبتت التجربة قصور إنسان عالم الشمال عن فهم أبعاد حركة نضال إنسان عالم الجنوب الذى استطاع من خلال مسارات ثورته الفكرية أن

يضع عالم الشمال والجنوب معاً أمام انعطاف تاريخى عميق ينبىء بأن حركة الإنسان من أجل الحرية ستطوى عصر الجمهوريات - لينبثق من حركة الإنسان ذاتها - عصر الجماهيريات الذى يستهدف تحقيق سيطرة الجماهير على مقدراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولتسقط بعمق اختيارها الثورى كل أشكال الوصاية المنبثقة عن منهجية التفكير فى فهم وتجسيد سلطة الجماهير ، حيث هذه السلطة محك اختيار تتحقق بها ومن خلالها سلامة التفكير الإنسانى من عدمه .

وضمن نماذج الفكر والممارسة ، وكنتيجة جدلية لا بد أن تحدث ، سقطت وتسقط كل يوم أدوات الحكم فى التجربة الإنسانية السالبة ، فلا سلطة الفرد ، أو القبيلة ، أو الطائفة ، أو الحزب استطاعت وبموضوعية أن تعطى للجماهير أداة حكم تجد فيها ذاتها وحريتها وتترجم حركتها وتجسد مضمون الإرادة الجماهيرية مما أثبت وبتجربة حركة الإنسان ذاتها سقوط المنهج الفكرى المستمد من الشمال الرأسمالى والشيوعى ، ومن محصلة هذا السقوط ، يسقط وهم التقسيم القسرى للمجتمعات البشرية ، حيث التخلف ليس وليد قصور مادى بقدر ما هو قصور فى إيجاد الحلول الموضوعية لمعضلات الإنسان ، وفى مقدمتها معضلة أداة الحكم التى تمثل نتاجاً للعلاقات الإنسانية فى داخل المجتمعات وتشكل مضموناً لها . .

وعلى ذلك فالديمقراطية الشعبية بمعطياتها الجماهيرية ، تشكل المدخل الحقيقى لفهم المنعطف التاريخى لعالمنا

المعاصر لأنها تكرس المضمون الحقيقى للحرية ، ومن خلالها تتجسد سلطة الجماهير التى تترجم اختياراتها وعلاقاتها الطبيعية .

وعصر الجماهير ، الذى تكون فيه السلطة للجماهير ، ضمن معطيات الثورة الثقافية ، يستهدف إرساء مضامين الرفض الثورى للموروث الفكرى والحضارى فى هذا العالم المشوه ، وصولاً إلى بلورة المضامين الحقيقية المنبثقة عن الطبيعة الإنسانية ، بكل شمولية قيمها وإنسانية معاييرها ، بما يحدث فيها التوازن الطبيعى لتكييف الشخصية الإنسانية ومعطيات عصر الجماهير المتمثلة فى الحرية الحقيقية للإنسان .

ذلك أن عصر الجماهير يستهدف ترجمة اختيارات الإنسان فى المضامين الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وتكييف علاقاتها فى تحقيق هوية الإنسان ، وإحداث التوازن فيها ، حتى تنعكس تلك العلاقات فى السلوك البشرى فى كافة مناحى الحياة سواء أكان سلوكاً سياسياً أو اجتماعياً أو ثقافياً . وقد أثبتت التجربة العلمية للإنسان ملامح هذا الرفض من خلال حركته اليومية الفكرية والسياسية ، حتى الرفض سمة من سمات هذا العالم يحدد لحركة الإنسان فيه مساراته ، ويشكل محوراً لصراعه الفكرى والسياسى وتتشابك فيه عوامل الرفض مع عوامل التغيير الثورى ، ليكون عصر الجماهير محصلة تشابكهما ، وصولاً إلى إرساء معالم التحرر الشمولى لإرادة الجماهير لتشكل من إرادتها أداة سياسية تنطلق من الجماهير بأداة الجماهير ، ولغاية الجماهير .

لقد أكدت معطيات ثقافة الصمت المفروضة من الشمال على الجنوب ، ومن خلال توجهها المادى حاجة الإنسان إلى رفض تلك المعطيات إدراكاً منه لفقدان التوازن فى ذاتيته الإنسانية الأمر الذى أدى به إلى اتخاذ موقف الرفض لموقف الصمت ، إلا أن ظاهرة الرفض تلك ظلت حبيسة المحتوى السلبى للرفض فى بعض أجزاء العالم ، مما أنتج ظواهر سلبية اتسمت بسمات اللامبالاة واللاانتماء واللامسؤولية، والتى مثلت فقدان التوازن بين الإنسان والعالم وحده الظواهر تعكس قصور المعطيات الحضارية ، وقصور قيمها الاجتماعية والأخلاقية مما رتب من خلال إدراك هذا القصور ومحاولة فهم هذه الظواهر أن اتجه الفكر الإنسانى إلى إعادة النظر فيما تعارف عليه بالمسلمات الفكرية التى كان يحملها الموروث الفكرى والثقافى المستمد من النظريتين الليبرالية والشيوعية ، فى محاولة لتقنين مظاهر الرفض ، وإعطائه المضمون الإيجابى ، بحيث يستطيع الإنسان من خلال منهج فكرى جماهيرى أن يواكب ظواهر الرفض ويقننها ضمن معطياته الفكرية ، حيث بدأ الإنسان يتجه إلى إعطاء مضمون إيجابى لمواقف الرفض السلبية والصمت ـ خلال المراجعة العلمية والموضوعية والفهم العميق لمقولات النظرية العالمية الثالثة ـ الكتاب الأخضر .

وعلى الرغم من محاولة النقد الموجه التى قام ويقوم بها منظرو النظريتين من أجل استقطاب حركة الرفض الجماهيرى فى مضمونها الجديد ، ضمن إطارهما ، وفرض ثقافة الصمت بالمقابل إلا أن حركة الرفض العقائدى الجماهيرى من خلال

عمق إحساسها وإدراكها الرافض لمعطيات النظريتين وما يترتب عليهما من ممارسات فكرية وسياسية ، قد حال دون قدرة المنظرين الليبراليين والشيوعيين على استيعاب واحتواء حركة الرفض العقائدى ، وذلك لأن حركة الرفض الجماهيرى لم تولد إلا من خلال عمق المعاناة الفكرية والسياسية النابعة من المعايشة الفكرية والعملية ، مما حول ظواهر الرفض السلبية والصمت إلى ظواهر رفض إيجابية نمت نمواً عقائدياً من خلال استيعاب كل الموروث الفكرى لكلتى النظريتين فتولد من خلال الصراع توجه عقائدى يتخذ من الموقف الرافض أرضية للظواهر الفكرية والسياسية بما يحقق انعتاقاً حقيقياً من موروث النظريتين الفكرى مبشراً بولادة فكر عقائدى جماهيرى يقضى على التعليم الإجبارى الذى هو أحد الأساليب القامعة للحرية والتكييف العمدى الذى هو طمس لمواهب وذوق وعقلية الإنسان ، والتعليم المنهجى الذى يمنعه من الاختيار الحر والإبداع والتألق ويتجه هذا الفكر إلى الحياة ذاتها ومعايشتها بحثاً عن النظرية التى تنهى الجهل والتجهيل وتقدم كل شىء على حقيقته وتحقق توازن القيم فى ذاتية الإنسان العارفة وتجعل المعرفة حق طبيعى لكل إنسان .

هذه وسواها من المبادىء الإنسانية تبرز من كتاب (باولو فريرى) العمل الثقافى من أجل الحرية وتعطى القارىء صورة لثقافة الرفض تختلف اختلافاً جوهرياً عن مفاهيم الثقافة السائدة ثقافة الصمت وهى تعد مساهمة علمية تنير الطريق على ضوء الفكر الإنسانى الذى يبشر به الكتاب الأخضر ويعمل المركز

العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر على نشره من أجل إقامة حضارة إنسانية أصيلة تبشر الإنسان بالحرية والسعادة . .

شعبة المكتبات والطباعة والنشر
بالمركز العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر



المقدمة

أعتقد أنه من المهم بالنسبة لى وللقارىء أن أحاول منذ البداية ، أن أوضح بعض النقاط الجوهرية للفهم العام لأفكارى فى التربية باعتبارها عملاً ثقافياً من أجل الحرية . .

ومما يزيد ذلك أهمية أن أحد الأهداف الأساسية لهذا العمل ، حيث نناقش عملية تعليم الكبار ، هو أن أبيّن أنه إذا كان اختيارنا هو من أجل الإنسان فإن التربية هى العمل الثقافى من أجل الحريـة ، وعليه فهى عمليـة معرفـة وليست عملية استظهار . ولا يمكن تبرير هذه العملية فى كلها المعقد بنظرية آلية محضة ، ذلك أن مثل هذه النظرية لا تفهم التربية بشكل عـام وتعليم الكبار بشكـل خاص على أنهـا عملية معـرفـة . بالعكس فهى تختزل ممارسة التربية إلى مركب من التقنيات ،

ينظر إليها سذاجة على أنها محايدة ، ويتم عن طريقها مقايسة العملية التربوية ، فى عملية فاصلة وبيروقراطية . .

ليس هذا بالتأكيد الذى لا مبرر له . وفيما بعد سنوضح الفرق الجوهرى بين المعرفة والاستظهار ، وسيتوضح السبب الذى يجعلنا نولى عملية تعليم الكبار مثل هذه الأهمية . .

ولكن يجب أولاً أن نقول بعض الكلمات عن التكييف الاجتماعى ـ التاريخى الذى يحكم الفكر المطروح هنا ، وكذلك بيان ضرورة التفكير النقدى فى هذا التكييف .

يشكل الفكر واللغة من وجهة النظر اللاإزدواجية كلاً ويشيران دائماً إلى واقع الذات الفرد المفكرة ويولد الفكر ـ اللغة الصادقة فى العلاقة الجدلية بين الذات الفرد وواقعه التاريخى والثقافى الملموس . . وفى حالة العمليات الثقافية المغتربة (المستلبة) التى هى غير المجتمعات التابعة أو المجتمعات الشيئية يستلب الفكر ـ اللغة ذاتها ، ومن هنا كان حقيقة أن هذه المجتمعات لا تعكس فكراً صادقاً خاصاً بها خلال فترات الاغتراب الحاد. فالواقع كما هو مفكر فيه لا ينطبق والواقع المعاش موضوعياً ، بل بالعكس مع الواقع الذى يتخيل الإنسان المغترب نفسه فيه . هذا الفكر ليس أداة فعالة سواء فى واقعة الموضوعى ، الذى لا يرتبط بالإنسان المغترب كذات مفكرة أو فى الواقع المتخيل أو المؤمل . وعندما ينفصم هذا النوع من الفكر عن الفعل الذى يعيشه ضمنياً الفكر الصادق ، يختفى فى الكلمات غير المؤثرة والزائفة . ولما كان الإنسان

المغترب ينجذب بلا مقاومة ويتأثر بأسلوب المجتمع المدير ـ المسيطر ، تجده إنساناً كثير التوق إلى الماضى ، وغير ملتزم حقاً بعالمه . . . وهكذا يصبح التظاهر بالكينونة وليس الكينونة ذاتها إحدى رغباته المغتربة فتفكيره وطريقته فى التعبير عن العالم هى عموماً انعكاس لفكر وتعبير المجتمع المدير ـ المسيطر[1] تمنعه ثقافته المغتربة من أن يفهم أن تفكيره وتعبيره الكونى لا يمكن أن يجد قبولاً خارج حدوده ما لم يكن مخلصاً لعالمه الخاص . . . ولن يكتسب فكره وتعبيره أهميتهما خارج ذلك العالم الآخر إلا بقدر ما يشعر تأملياً بعالمه ويعرفه عندما يكون قد خبره باعتباره وسيطاً للممارسة الجمعية المحولة .

وعلى كل فهذا الوعى بالذات وبالعالم ، ليس نتيجة اختيار شخصى صرف ، بل هو نتاج عملية تاريخية تقوم فيها المجتمعات الشبئية ، بعضها أسرع من الآخر بسبب التحولات البنيوية التى تتعرض لها ، بالتشكيك فى نفسها وتدرك أنها تابعة . إن هذه اللحظات التى تميز المرحلة الانتقالية لمثل هذه المجتمعات ، هى مشكلية وإبداعية على حد سواء . . وهى تشهد ظهور الجماهير وحضورها الصاخب فى العملية التاريخية بدرجات متباينة من الكثافة[2] . .

وهذا الحضور الشعبى يخلق بطبيعة الحال ، أسلوباً حياتياً جديداً فى المجتمع . . حيث يبدأ فى الكشف عن التناقضات الداخلية والخارجية للمجتمع ، والتى ظلت فيما سبق غائبة عن الجماهير وما يسمى بالأنتلجنسيا (الطبقة المثقفة) على حد

سواء . . وبهذه الطريقة يبدأ فى الحكم على الثقافة المغتربة . . يبدأ بعض المثقفين فى تغيير فكرتهم السابقة عن المجتمع ، مكتشفين حقاً بنية المجتمع للمرة الأولى . . وهكذا فإن ما تحدده الغربة على أنه قصور جوهرى لدى الجماهير الشعبية يعتبر موضوعياً نتاج الغربة نفسها ، والتى يتم اكتشافها على أنها انعكاس لحالة الهيمنة . . وهكذا كلما تمت تعرية الثقافة المغتربة ، كلما كشف القناع عن الواقع القهرى الذى ينشأ فيه . . ويبرز كذلك نموذج ثنائى . . وهكذا يعتمد المجتمع المغترب ككل على المجتمع الذى يضطهده والذى يخدم مصالحه الاقتصادية والثقافية . . وفى نفس الوقت نجد داخل المجتمع المغترب نفسه أن الصفوة السلطوية تفرض نظاماً اضطهادياً على الجماهير ، وهى فى بعض الحالات نفس الصفوة الخارجية وفى حالات أخرى هى الصفوة الخارجية نفسها وقد تحولت إلى مجموعات سلطوية محلية عن طريق نوع من التفشى (المخطط) . .

وفى كلتى الحالتين هناك بعد أساسى لهذه المجتمعات نتج عن المرحلة الاستعمارية حيث تأسست ثقافتها واستمرت كثقافة صمت . . وهنا يتضح لنموذج الثنائى خارجياً فالمجتمع المدير ـ المسيطر لا يسمع بالمجتمع المغترب ككل باعتباره مجرد شىء . . وعلى العكس فالولاية الأم تقرر للمجتمع المغترب كلمته ومن ثم تسكته عقلياً . . وفى نفس الوقت تُخضع الصفوة السلطوية الجماهير داخل المجتمع المغترب إلى نفس النموذج من الصمت . .

وعندما تتجاوز الجماهير مرحلة الانبهار بظهورها ويعلنون عن طريق فعالياتها بالمطلب تلو المطلب أنها تقترب من مرحلة التنظيم الكافى لتتمكن من تحطيم الخانع ، تحاول الصفوة السلطوية بقوة أن توقف هذه العملية . . وإذا ما افتقدت الصفوة القوة لإعادة الجماهير إلى صمتها الأصلى ، أخذ المجتمع المدير على عاتقه أن يقوم بذلك سواء تمت دعوته ، أم لا . . ويسبق القمع لإعادة الجماهير إلى صمتها ويرافقه مجهود غير عادى لتحديد كل فكر ـ لغة يستخدم مثل الغربة ، الهيمنة ، الاضطهاد ، التحرر ، الأنسنة ، والاستقلال الذاتى بأنها شيطانية . . ولدفع هذا المجهود نحو جماهير الشعب الحسنة النية والساذجة منها ، لا بد من الكشف عن الغموض الذى يكتنف هذه الكلمات وتبيان مدلولاتها الحقيقية فالتعبير عن المقولات الموضوعية ، الاجتماعية والتاريخية والسياسية لا تسمح طبيعتها المأسوية فى العالم الثالث لأحد أن يكون محايداً . .

وفى الوقت الذى كان يتم فيه الكشف عن حقيقة ثقافة الصمت بدأت كرجل من العالم الثالث ، إحكام طريقة ليست ميكانيكية من أجل تعليم الكبار بل نظرية تربوية ولدت فى رحم ثقافة الصمت نفسها ـ نظرية يمكن أن تصح فى الممارسة لا صمتاً للثقافة ، بل إحدى أدوات ذلك الصوت الذى ما زال تائهاً . .

إن التفكير المتطور هنا ليس بالطبع مجرداً من تأثير الفكر الآخر ، فهذا مستحيل . . نحن لم نرفض أبداً الإسهامات

الإيجابية من أناس من العالم الثالث أو المجتمعات المديرة . . إلا أن المواجهة مع عالمنا الخاص قد علمتنا أن الأفكار القادمة من جزء آخر من العالم لا يمكن زرعها ببساطة . . يجب أن تخضع أولاً لما يسميه الأستاذ فى كتابه بالاختزال الاجتماعى . . ولسوء الحظ فإن مثل هذه النظرية العلمية الصارخة ليست واسعة الانتشار بعد مع العالم الثالث . .

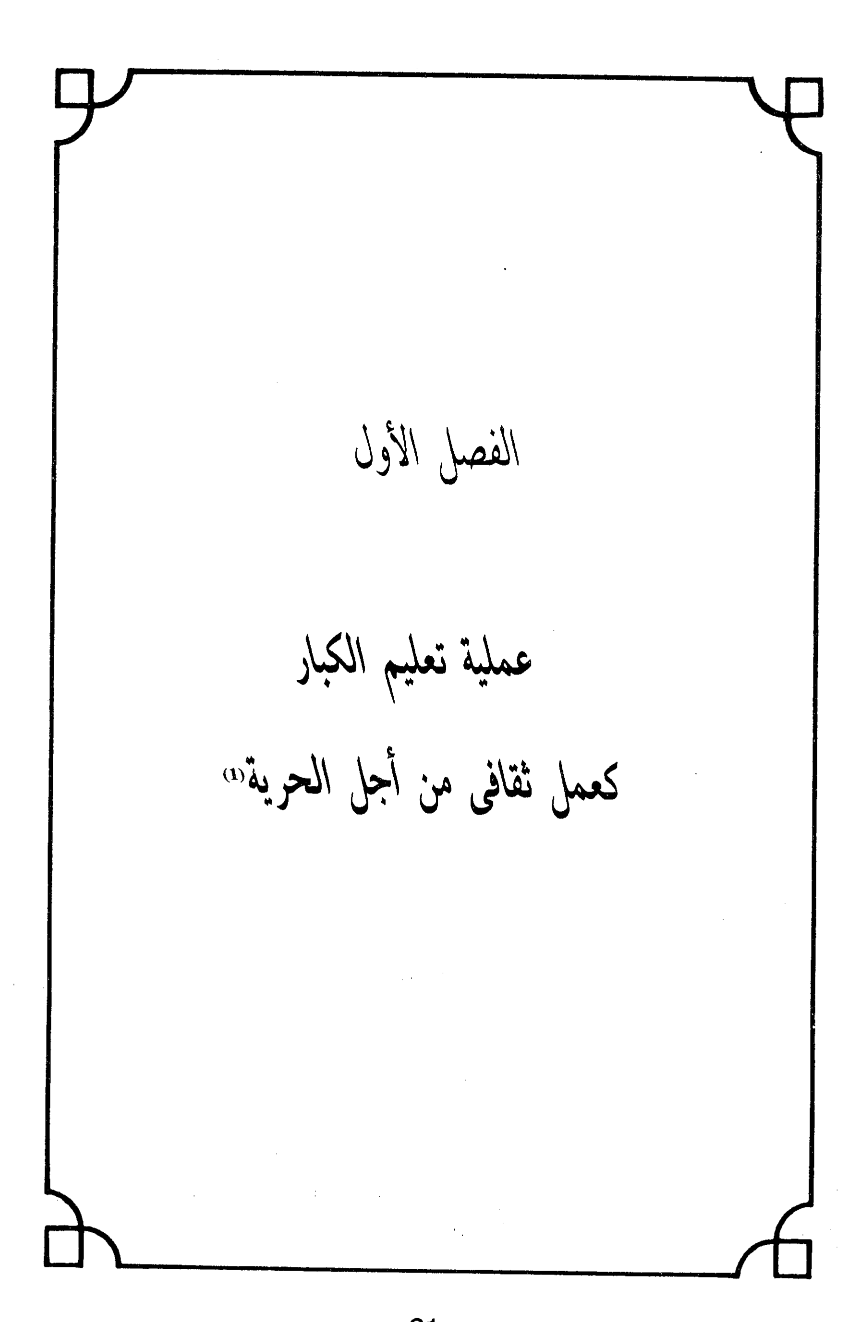
وبالنظر إلى أنه عالم صمت فقد ظل غير قادر ـ ليس بسبب عدم القدرة الوجودية (الأنترلوجية) أو لا لوجود مثل هذا الشىء ـ على أن يتخذ وضعه عالم من له صوت عالم هذا موضوع اختياراته ويتصور قدره بحرية . . ومع ذلك فقد بدأ العالم الثالث يسعى وبسرعة مأساته . . وقد بدأ يفهم أنه لا يمكن تحقيق الحاجة إلى التنمية ، والتى أثيرت حولها دعاية كبيرة ، تحت ظروف الصمت المستمرة أو تحت صوت خادع . . . إذا تمت مثل هذه الظروف لا يمكن تحقيق أكثر من مجرد التحديث . .

ومن ثم فإن موضوع العالم الثالث الجوهرى ـ ضمنياً يعنى مهمة صعبة ولكن ليست مستحيلة بالنسبة لشعوبه ـ هو انتزاع حقه فى أن يكون له صوت ، انتزاع حقه فى أن يقول كلمته . . وعندئذٍ فقط يمكن أن تصبح كلمة أولئك الذين يسكتونه أو لا يعطونه أكثر من مجرد الوهم بالكلام أن تصبح كلمته صادقة . . ولن يخلق العالم الثالث الظروف التى لا مقصود لها الآن لأولئك الذين يسكتونه لكى يدخلوا معه فى

حوار ألا يتحقق بحق فى أن يقول كلمته ، وحقه فى أن يكون ذاته وأن يتولى توجيه قدره هو . .

وباعتبارى من أبناء هذا العالم ممن عاشوا تجارب هامة ، إن لم تكن مؤذية جداً ، لأنى تجرأت على أن يكون لى صوت فى ثقافة الصمت ، فإن لدى رغبة واحدة : وهى أن يتصادف تفكيرى تاريخياً مع تململ كل أولئك الذين يناضلون من أجل أن يكون لهم صوتهم الخاص بهم ، سواء أكانوا يعيشون فى تلك الثقافات التى أسكتت كلية أو فى القطاعات الصامتة من الثقافات التى تقرر وتحدد صوتهم . .





الفصل الأول

عملية تعليم الكبار

كعمل ثقافى من أجل الحرية[1]



تتضمن كل ممارسة تربوية ضمناً مفهوماً عن الإنسان والعالم

علمتنا الخبرة ألا نفترض أن ما هو واضح للعيان مفهوم بوضوح . . وكذلك الأمر بالنسبة للحقيقة البديهية التى تبدأ بها ، كل الممارسات التربوية تقتضى ضمناً موقفاً نظرياً من طرف المربى . . وهذا الموقف ينطوى بدوره أحياناً بوضوح أكثر وأحياناً أقل ـ على تفسير للإنسان والعالم . . ولا يمكن أن يكون غير ذلك . . ذلك أن عملية توجه الإنسان فى العالم لا تشمل تداعى الصور الحسية وحسب كما هو الحال بالنسبة للحيوانات . . فهى تتضمن وقوف كل شىء ، الفكر ـ اللغة أى إمكانية عملية المعرفة عن طريق ممارسة الإنسان ، والتى يحول بها الواقع . . ولا يمكن للإنسان أن يفهم عملية التوجه هذه

كمجرد حدث ذاتى ، ولا كحدث موضوعى ميكانيكى ، ولكن فقط باعتباره حدثاً تتوحد فيه الذاتية والموضوعية . . إن التكيف فى العالم مفهوم على هذا النحو ، يضع مسألة الهدف من الفعل فى مستوى الإدراك النقدى للواقع .

وإذا كان التكيف فى العالم يعنى بالنسبة للحيوانات التهيؤ مع العالم ، فإن التكيف بالنسبة للإنسان يعنى أنسنة العالم وذلك بتحويله . . ذلك أنه بالنسبة للحيوانات ليس هناك مفهوم تاريخى ،وليست هناك اختيارات أو قيم ، بل هناك بعد تاريخى وقيمى على حد سواء . . فلدى الإنسان الإحساس بالمشروع يقابلها الروتين الغريزى لدى الحيوان . .

إن نشاط الإنسان غير الهادف بصرف النظر عما إذا كانت الأهداف صائبة أم خاطئة ، ميتولوجية أو غير ميتولوجية ساذجة أو نقدية ، ليس ممارسة . ولو أنه قد يكون تكيفاً فى العالم . . وإذا لم تكن نشاطات الإنسان ممارسة ، فسيكون نشاطاً جاهلاً بكل عمليته ذاتها وبهدفه . . ويشكل الترابط الداخلى بين الوعى بالهدف والعملية أساساً لتخطيط النشاط الفعلى ، وهذا يتضمن الوسائل . . والأهداف والخيارات القيمية . .

يجب أن ينظر إلى تعليم القراءة والكتابة للكبار وأن يحلل ويفهم بهذه الكيفية وسيكتشف المحلل الناقد فى الوسائل والمقررات النصوص التى يستخدمها المربون والطلبة خيارات قيمية عملية تنم عن فلسفة نحو الإنسان سواء أكانت محددة بشكل جيد أو سيء ، وبغض النظر عن كونها متماسكة أم لا . . ولا يمكن لأحد أن يختزل التعليم بين الكبار إلى نشاط

ميكانيكى مرضٍ إلا إذا كان من ذوى العقلية الميكانيكية التى يسميها ماركس « بالمادية الفاضحة » إن مثل هذه النظرة الساذجة لن تكون قادرة على إدراك فهم أن التكتيك ذاته كأداة للإنسان فى تكيفه فى العالم ليست محايدة . .

وعلى أى حال فسنحاول أن نثبت بالتحليل بداهة حكمنا . . دعونا نتأمل قضية الكتب التمهيدية المستعملة كمفردات/نصوص أساسية لتعليم الكبار القراءة والكتابة . . ولنقترح إضافة إلى ذلك نوعين متميزين : كتاب تمهيدى سيىء الإعداد وآخر جيد ، وفقاً لمعايير الأسلوب ذاته . . بل فلنفترض أن مؤلف الكتاب التمهيدى قد أسس اختياره لمفرداته التوليدية على معرفة سابقة بأى الكلمات أكثر رنيناً لدى المتعلم (وهى ممارسة غير موجودة عموماً ، ولو أنها موجودة) .

لا شك أن مثل هذا المؤلف قد تجاوز كثيراً وبالفعل زميله الذى يؤلف كتابه التمهيدى من كلمات يختارها بنفسه من مكتبه . . ولكن كلا المؤلفين ، على أى حال متطابقين بطريقة جوهرية . . ففى كلتى الحالتين يفككان الكلمات التوليدية المتوفرة ويخلقان من مقاطعها كلمات جديدة . . ويشكل المؤلفان من هذه الكلمات جملاً بسيطة ، ورويداً ، قصصاً صغيرة ، أو ما يسمى دروس القراءة .

ولنقل أن مؤلف الكتاب التمهيدى الثانى ، وقد خطا خطوة إلى الأمام ، يقترح أن يستهل المدرسون الذين يستعملونه مناقشات مع طلابهم حول كلمة أو أخرى ، أو جملة أو نص .

وإذا تأملنا فى هاتين الحالتين الافتراضيتين فإنه يمكننا أن نستنتج شرعياً أن طريقة الكتاب التمهيدية ومحتواه يحتويان ضمنياً مفهوماً عن الإنسان سواء أقر به المؤلفون أم لا . . ويمكن إعادة تركيب هذا المفهوم من زوايا متعددة . . ونبدأ بحقيقة أنه مما يكمن فى فكرة الكتاب واستعماله أن المدرس هو الذى يختار المفردات ويفرضها على المتعلم . . ومن حيث أن الكتاب هو الشىء الوسيط بين المدرس والطلاب ، وأن الطلاب سيملأون بالمفردات التى اختارها المدرسون ، يمكن للمرء أن يكتشف ببساطة أن بعداً أولياً مهماً عن صورة الإنسان قد بدأ يبرز هنا . . إنها صورة لإنسان فارغ كالوعاء ويجب أن يملأ أو يغذى لكى يعرف . . وقد قاد هذا المنطق (سارتر) عند نقده لفكرة أن تعرف هو أن تأكل فى أن يصرح « آه يا فلسفة التغذية » .

نجد هذا المفهوم الهضمى للمعرفة الشائع جداً فى الممارسات التربوية الحالية ، بوضوح تام فى الكتاب التمهيدى . . حيث يعتبر الأميين « ناقصى تغذية » وبالمعنى الحرفى الذى يعانى منه الكثيرون منهم فعلاً ، ولكن لأنهم يعتقدون أن الخبز الروحى وتمشياً مع مفهوم المعرفة كغذاء ، تعد الأمية عشباً ساماً مخدراً وموهناً للأشخاص الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة . . ومن ثم يقال الكثير عن « استئصال الأمية » لعلاج المرضى (أنظر مقالى أبجدة الكبار) .

وبهذه الطريقة عندما تجرد الكلمات خاصيتها كعلامات

لغوية مكونة للفكر واللغة لدى الإنسان ، تتحـول إلى مجرد مخـزونـات معجميـة الخبـز الـروحى الـذى يـأكله ويهضمـه الأميون . .

وربما فسرت هذه النظريـة الغذائيـة لمعـرفـة الطبيعـة الإنسانية لبعض حملات تعليم الكبار فى أمريكا اللاتينية . . فـإذا كان المـلايين من البشر أميين يتلهفـون جوعـاً للحرف ويتعطشون للكلمة فيجب أن يؤتى إليهم بالكلمة لإنقاذهـم من الجوع والعطش ووفقاً للمفهوم الطبيعى للوعى المتضمن فى الكتـاب التمهيدى ، يجب أن تـودع الكلمات لأن تـولد من المجهود الإبداعى للمتعلمين . . إن الإنسان كما يفهم فى هذا المفهوم كائن سلبى ، وهو هدف عملية تعليم القراءة والكتابة ، وليس موضوعها . . وباعتباره هدفاً فإن مهمته هى أن يدرس ما يسمى بدروس القراءة ، وهى فى الواقع تكاد تكون مغتـربة ومغتربة كلياً ، أولاً إن علاقتها بسيطة ، هذا إن حدث ، بالواقع الاجتماعى ـ الثقافى للطالب . .

وستكون حقاً دراسة مثيرة للاهتمام لو سنحت أن نحلل نصوص المطالعـة/القراءة المستخـدمة بحمـلات تعليم الكبار الخاصة أو الرسمية فى أرياف ومدن أمريكا اللاتينية . . وسوف لن يكون غريباً إن نجد بين مثل هذه النصوص مجلات وقراءات كالعينات العشوائية التالية :

« الجناح للطير . .
أيف رأت العنباية

الديك يصيح . .
الكلب ينبح . .
مارى تحب الحيوانات . .
جون يعتنى بالأشجار . .
إسم والد تشارلز أنتونيو . . تشارلز طفل جيد ،
حسن السلوك وجد .
إذا طرقت مسماراً ، كن حذراً كى لا تهشم أصبعك . .

لم يعرف بيتر كيف يقرأ . . كان بيتر مكسوفاً فى يوم من الأيام ذهب بيتر إلى المدرسة وسجل إسمه بالدورة الليلية . . كان مدرس بيتر جيداً جداً . . والآن بيتر يعرف كيف يقرأ . . أنظر إلى وجه بيتر (هذه الدروس عموماً موضحة) . . بيتر يبتسم . . إنه رجل سعيد . . لقد حصل على عمل جيد . . يجب على الجميع أن يحذو حذوه » .

إن بالقول أن بيتر يبتسم لأنه يعرف يقرأ ، وأنه سعيد لأن لديه الآن عمل جيد ، وأنه مثال يقتدى به الجميع ، يؤسس المؤلفون علاقة بين معرفة القراءة والحصول على أعمال جيدة ، والذى لا يمكن فى الحقيقة تأييده . . أن هذه السذاجة تعكس ، على الأقل ، الفشل لا فى تركيز الأمية وحسب ، بل والظواهر الاجتماعية عامة . . وقد يعترف إدراك مثل هذا التناول/النظرة بأن مثل هذه الظواهر موجودة ولكنها لا تستطيع أن تدرك بتبين المجتمع الذى توجد فيه . . وكما لو أن هذه الظواهر كانت أسطورية تتجاوز وتفوق المواقف الملموسة ، أو نتائج النقص الجوهرى لدى طبقة معينة من البشر ولما كانت

هذه النظرة غير قادرة على فهم الأمية المعاصرة على أنها مظهر لثقافة الصمت ، مرتبطة مباشرة بالبنى المتخلفة (غير النامية) فإنها لا تستطيع أن تقدم استجابة موضوعية ، نقدية لتتحدى الأمية .

إن مجرد تعلم الإنسان القراءة والكتابة لا يحقق المعجزات ، وإذا لم تكن هناك وظائف كافية للقادرين على العمل ، فإن تعليم المزيد من البشر القراءة والكتابة لن يخلق لها المزيد من الوظائف . .

ويقدم أحد كتب المطالعة هذه من بين دروسه النصين التاليين فى صفحتين متتاليتين دون ربطهما . .

أما النص الأول فهو عن الفاتح من سبتمبر عيد العمال الذى يحيا فيه العمال وترى نضالاتهم . . وهو لا يبين كيف أو أين يتم أحياؤ ها ، أو ماذا كانت طبيعة الصراع التاريخى . .

والموضوع الأساسى للدرس الثانى هو العطلات يقول إنه « فى مثل هذه الأيام يجب على الناس أن يذهبوا إلى الشط للسباحة وليأخذوا حمام شمس . . وعليه فإذا كان الأول من سبتمبر عطلة ، وإذا كان على الناس أن يذهبوا إلى الشط فى العطلات » ، فالاستنتاج هو أن يذهب العمال للسباحة فى يوم عيد العمال ، بدلاً من الاجتماع بنقاباتهم فى الميادين العامة لمناقشة مشاكلهم . .

إذن يبين تحليل مثل هذه النصوص رؤية مفرطة فى

التبسيط تجاه الإنسان والعالم ، والعلاقة بين الإثنين ، وعملية محو الأمية التى تنكشف فى ذلك العالم . .

إن فئات لغوية ، عندما تستظهر ميكانيكياً وتكرر تجرد من بعدها الحقيقى كفكر ـ لغة فى تفاعل ديناميكى مع الواقع . . وعندما تقفز بهذا الشكل لن تكون تغييرات صادقة فى العالم . .

لا يعترف مؤلفوها بوجود القدرة لدى الطبقات الفقيرة على المعرفة بل وحتى على خلق النصوص التى قد تعبر عن فكرهم ـ لغتهم فى مستواهم وإدراكهم للعالم . . وهكذا يكرر المؤلفون بالنصوص ما يفعلونه بالكلمات ، أى أنهم يقدمونها لوعى المتعلمين كما لو كان حيزاً فارغاً مرة أخرى المفهوم « الهضمى » .

وأكثر من ذلك أن يكشف الإدراك اللابنيوى للأمية المنعكس فى هذه النصوص النظرية الزائفة الأخرى عن الأميين باعتبارهم هامشيين . . ومع ذلك ، فإن على الذين يعتبرونهم هامشيين . . أن يعترفوا بوجود واقع يكونون هامشيين بالنسبة له ـ لا الفراغ المادى فقط ، بل الواقع التاريخى والاجتماعى ، والثقافى والاقتصادى ـ أى البعد البنيوى للواقع . . وبهذه الطريقة لا بد من الاعتراف بالأميين ككائنات خارج شىء ما أو هامشية بالنسبة لشىء ما ، حيث أنه من المستحيل أن تكون هامشياً فى فراغ . . إلا أنه أن تكون « خارجى » أو هامشى تقتضى بالضرورة حركة من يسمى هامشياً من المركز ، حيث كان باتجاه المحيط الخارجى عن هذه الحركة ، والتى هى فعل ، لا تفترض مسبقاً بدورها وجود فاعل بل أسباباً مبررة ، كذلك . .

وإذا اعترفنا بوجود أناس خارج أو على هامش الواقع البنيوى ، فيبدو من المشروع أن نسأل من هو صانع هذه الحركة من مركز البنية إلى هامشها ؟ . . وهل يقرر من يسميهم بالهامشيين ـ بما فى ذلك الأميون ـ الحركة باتجاه محيط المجتمع ؟ . . وإذا كان الأمر كذلك فالهامشية خيار يشكل ما يقتضيه ذلك الجوع ، المرض ، كساح الأطفال . . الألم . . القصور العقلى . . الحياة والموت . . الجريمة . . الإباحية . . القنوط . . استحالة الكينونة . . الوجود . . وفى الحقيقة ، على كل حال ، من الصعب أن يقبل بأن 40% من سكان البرازيل ، 90% تقريباً من سكان هايتى ، 60% من سكان بوليفيا ، وحوالى 40% فى البيرو وحوالى 70% فى جواتيمالا ، قد اتخذوا ذلك الاختيار المأساوى بأنفسهم ليكونوا هامشيين كأميين (أنظر تقرير اليونسكو) .

ومن ثم فإذا كانت الهامشية ليست بالاختيار ، فإن الإنسان الهامشى مطرود من النظام الاجتماعى والإبقاء عليه خارجه وعليه فهو هدف للعنف . .

إلا أن البناء الاجتماعى ككل لا يطرد ، كما أن الإنسان الهامشى كائن فى الخارج على العكس فهو كائن فى الداخل ضمن البناء الاجتماعى ، وفى علاقة تابعة بالنسبة لأولئك الذين نسميهم زوراً كائنات مستقلة ، كائنات غير صادقة من أجل ذاتها . .

قد تقول نظرة أقل صرامة ، نظرة أكثر تبسيطاً وأقل نقدية ، أكثر تقنية ، أنه لم يكن من الضرورى التفكير فيما نعتبره قضايا غير مهمة مثل الأمية وتعليم الكبار القراءة

والكتابة .. وقد تضيف مثل هذه النظرة أن مناقشة مفهوم الهامشية كان تمريناً أكاديمياً لا ضرورة له إلا أن الواقع غير ذلك .. فالقبول بالأمى كشخص يوجد على حافة المجتمع ، سيقودنا إلى النظر إليه على أنه إنسان مريض تكون معرفة القراءة والكتابة الدواء الشافى له ، الذى يمكنه من العودة إلى البناء السليم الذى انفصم عنه .. وسيصبح المربون مستشارين خيرين ، يطوفون ضواحى المدن بحثاً عن الأميين الفارين من الحياة الرغدة ، لإعادتهم إلى صدر السعادة وذلك بالإنعام عليهم بمنة الكلمة ..

وفى ضوء مثل هذا المفهوم - الواسع الانتشار لسوء الحظ - لا يمكن لبرامج تعليم القراءة والكتابة أبداً أن تكون جهداً وعملاً من أجل الحرية ، وسوف يشكو فى ذات الواقع الذى يحرم الإنسان من حقه من أن يتكلم بحرية - ليس الأميين فحسب بل كل أولئك الذين يعاملون كأشياء فى علاقة تابعية ..

وفى الحقيقة فهؤلاء البشر سواء أكانوا أميين أم لا ، ليسوا هامشيين .. وما قلناه آنفاً قابل للتكرار : إنهم ليسوا « كائنات خارجة عن » ، إنهم كائنات من أجل الآخرين .

وبالتالى فإن حل مشكلتهم لا يكمن فى أن يصبحوا فى الداخل ولكن بشراً يحررون أنفسهم ، ذلك أنهم ليسوا فى الواقع هامشيين بالنسبة للبناء الاجتماعى ولكنهم بشر مضطهدون داخله .. وباعتبارهم بشراً مغتربون ، فإنهم لا يستطيعون التغلب على تبعيتهم بالاندماج فى نفس البناء المسؤول عن تبعيتهم .. ليس هناك من طريق للألسنة - ألسنتهم وألسنة كل

من عداهم على حد سواء ـ غير التحويل الحقيقى للبناء السالب للإنسانية .

ومن وجهة النظر الأخيرة هذه لا يعود الأمر بعد شخصاً على حافة المجتمع ، شخصاً هامشياً، بل بالعكس ممثلاً لشريحة اجتماعية خاضعة للهيمنة يعارض عن وعى أو عن غير وعى أولئك الذين يعاملونه ، فى نفس البناء ، على أنه شىء . . وهكذا أيضاً لن يصبح تعليم الإنسان القراءة والكتابة مسألة غير ذات أهمية ، أو مسألة استظهار كلمة مغتربة بل تمرين صعب فى تسمية العالم . .

فى الافتراض الأول ، تفسير الأميين على أنهم بشر هامشيون بالنسبة للمجتمع ، يعزز عملية تعليم القراءة والكتابة تحويل الواقع إلى أسطورة وذلك بالإبقاء عليه مهماً وبكل « الوعى الفارغ » يعد ولا يحصى من الكلمات والعبارات المنفرة وبالمقابل ففى الافتراض الثانى ـ تفسير الأميين كبشر مضطهدين ضمن النظام ـ فعملية تعليم القراءة والكتابة ، كعمل ثقافى من أجل الحرية ، هى عملية معرفة يأخذ فيها المتعلم دور الذات العارفة فى حوار مع المربى . . ولهذا السبب ، فإنه لمجهود شجاع أن نعرّى الواقع من الخرافة وهى عملية يبدأ من خلالها البشر الذين كانوا فيما مضى مغمورين فى الواقع يبدأون فى الظهور لكى لا يدخلوا فيه أنفسهم من جديد بوعى نقدى . .

وعليه يجب على المربى أن يسعى من أجل استيضاح أكثر أحياناً دون معرفته الواعية ، لما ينير طريق فعله/ نشاطه هذه هى الكيفية الوحيدة التى يمكن بها للمربى أن يأخذ على

عاتقه بالفعل دور إحداث هذا الفعل وأن يظل ثابتاً فى هذه العملية . .

عملية محو الأمية بين الكبار كعملية معرفة :

لكى تكون عملية معرفة تتطلب عملية محو الأمية عند الكبار علاقة حوارية بين المدرسين والطلبة . . فالحوار الصادق يوحد الذوات مع بعضها فى معرفة/إدراك موضوع/ شىء قابل للمعرفة يتوسط بينهما . .

وإذا كان لتعليم القراءة والكتابة أن يكون عملية معرفة ، فيجب على المتعلمين أن يأخذوا على عاتقهم من البداية دور الذوات المبدعة فالمسألة ليست استظهار وتكرار مقاطع وكلمات وعبارات معينة بل مسألة التفكير نقدياً فى عملية القراءة والكتابة ، وفى الأهمية العميقة للغة . .

وبقدر ما اللغة مستحيلة بدون فكر ، وبقدر ما اللغة والفكر مستحيلان بدون العالم الذى يشيران إليه ، فالعالم الإنسانى هو أكثر من مجرد معجم - إنه الكلمة - والفعل . . يجب أن تشمل الأبعاد المعرفية للقراءة والكتابة علاقات الإنسان بعالمه . . هذه العلاقات هى مصدر الجدل بين النتاجات التى ينجزها الإنسان فى تحويله للعالم والتكييف الذى تمارسه هذه النتاجات بدورها على الإنسان . .

يجب أن يكون تعلم القراءة والكتابة فرصة للإنسان أن يعرف ما الذى يعبر الملفظ بالكلمة فعلاً إنها نشاط بشرى

يتضمن التفكير والفعل . . وهو تعلم (القراءة والكتابة) فى حد ذاته حق إنسانى أساسى وليس امتيازاً لقلة ، كما أشير فى مقالى « أبجدية الكبار » . . منطق الكلمة ليس عملية صادقة إذا لم يرتبط فى نفس الوقت بالحق فى الإبداع من جديد ، وفى اتخاذ القرار والاختيار ، وفى النهاية بالحق فى المشاركة فى العملية التاريخية للمجتمع . . « فى البدء كانت الكلمة » فى ثقافة الصمت الجماهيرى خرساء ، أى أنها ممنوعة من المشاركة المبدعة فى تحولات مجتمعها ومن ثم فهى ممنوعة من الكينونة/الوجود . . وحتى إذا كان فى مقدورها أحياناً أن تقرأ وتكتب لأنها علمت من خلال حملات محو الأمية الخيرية ـ ولكن غير الإنسانية فهم مع ذلك غرباء، عن السلطة المسؤولة عن صمتهم . .

يعرف الأميون أنهم بشر ملموسون ويعرفون أنهم يفعلون الأشياء . . غير أن ما لا يعرفه فى ثقافة الصمت ـ التى يوجد من فيها ككائنات غامضة مزدوجة ـ هو أن فعاليات الإنسان فى حد ذاتها محولة (تؤدى إلى التحول) ، إبداعية وتؤدى إلى الإبداع من جديد . . وبالنظر إلى غلبة خرافات هذه الثقافة ، بما فى ذلك خرافة دونيتهم الطبيعية فهم لا يعرفون أن فعالياتهم فى العالم محولة (تؤدى إلى التحول) أيضاً . . ولما كانوا قد منعوا من الإدراك البنيوى للوقائع التى تعنيهم فهم لا يعرفون أنهم لا يستطيعون أن يملكوا الخيار أى أنه لا يمكنهم ممارسة حق المشاركة عن وعى فى التحول الاجتماعى ـ التاريخى لمجتمعهم ، لأن عملهم ليس ملكاً لهم . .

يمكن القول (وسأوافق أنا) من غير الممكن التعرف على كل هذا بمعزل عن الممارسة ، أى بمعزل عن التفكير والفعل ، وإن محاولة ذلك ستكون مثالية محضة .. غير أنه من الصحيح أيضاً أن الفعل فى شىء ما يجب أن يحلل نقدياً لكى يفهم كلٌ منا الشىء ذاته وفهمنا الشىء تقتضى عملية المعرفة حركة جدلية تتحرك من الفعل إلى التفكير ومن التفكير فى الفعل إلى فعل جديد ... ولكى يعرف المتعلم ما لم يعرفه من قبل ، يجب عليه أن ينشغل بعملية تجريد حقيقية يمكنه عن طريقها التفكير فى كل الفعل ـ الشىء ، أو بشكل أكثر عمومية ، التفكير فى أشكال التـ ـ فى العالم .. وفى عملية التجريد هذه ، تطرح عليه المواقف الممثلة لكيفية تكييف المتعلم لنفسه فى العالم باعتبارها أهدافاً لنقده ..

وباعتبار عملية محو الأمية حدثاً يستدعى التفكير النقدى من جانب كل من المتعلمين والمربين ، يجب أن تربط (عملية محو الأمية) التلفظ بالكلمة بتحول الواقع وبدور الإنسان فى هذا التحول .. إن إدراك أهمية تلك العلاقة أساسى بالنسبة للذين يتعلمون القراءة والكتابة إذا كنا حقاً ملتزمين بالتحرر ..

ذلك أن مثل هذا الإدراك سيقود المتعلمين لأن يدركوا أن لهم حقاً أكبر من تعلم القراءة والكتابة .. سيدركون فى النهاية أنهم كبشر لهم الحق فى أن يكون لهم صوتاً ..

ومن ناحية أخرى فإن تعلم القراءة والكتابة باعتبارها عملية

معرفة لا يفترض مسبقاً نظرية فى المعرفة وحسب بل طريقة لتوازى النظرية كذلك . .

وهكـذا تدرك الـوحدة غير القابـلة للجـدل بين الذاتيـة والموضوعية فى عملية المعرفة . . فالواقع ليس أبداً وببساطة مجرد الحقيقة الموضوعية أو الوقائع الملموسة ، ولكنه إدراك الإنسان كذلك ، ومرة أخرى ، ليس هذا تأكيداً ذاتياً أو مثالياً كما قد يبدو . . على العكس فالذاتية والموضوعية[9] . . تقتضى عملية محو الأمية باعتبارها عملية معرفة وجود محيطين مترابطين جـوابـاً . . أحـــدهمـا محيط الحـــوار الصـادق الحقيقى بين المتعلمين والمربين باعتبارهما ذاتين عارفتين متساويتين، وهذا ما يجب أن تكون عليه المدارس فى البيئة النظرية للحوار. . أما المحيط الثانى هو محيط الوقائع الحقيقية الملموسة، الـواقع الاجتماعى الذى يوجد فيه الإنسان. .

فى المحيط النظرى للحوار ، يتم تحليل الوقـائع التى يطرحها المحيط الحقيقى أو الملموس نقدياً . . ويقتضى هذا التحليل ممارسة التجريد الذى ننشد من خلالـه ، عن طريق تصويرات الواقع الملموس أى معرفة ذلك الواقع . . وأداة هذا التجريد فى منهجنا هى الترميز[10] ، أو تصوير المواقف الوجودية للمتعلمين .

فالترميـز من ناحيـة ، متوسط بين المحيـطين الملموس والنظرى للواقع . . ومن ناحية فالترميز من حيث أنه شىء قابل

للمعرفة يتوسط بين الذوات العارفة للمربين والمتعلمين ، الذين ينشدون بالحوار الكشف عن كليات الفعل ـ الشىء .

يجب أن يقرأ هذا النوع من التخاطب اللغوى من طرف كل من يحاول تفسيره ، حتى عندما يكون تصويرياً صرفاً . . ويقدم فى حد ذاته ما يسميه نشومسكن « بالبنية السطحية » فالبنية العميقة . .

« فالبنية السطحية » للترميز تجعل كل الفعل الشىء واضحاً من الناحية التصيفية الصرفة . . والمرحلة الأولى من فك الرموز[11] (الفرز الرمزى) أو القراءة الوصفية فى هذه المرحلة يركز القراء أو الذين يفكون الرموز على العلاقة بين المقولات المكونة للترميز ويتبع هذا التركيز الأولى على البنية السطحية مشكلة . . الموقف المرمز . . وهذا يقود المتعلم إلى المرحلة الثانية والجوهرية من فرز الرموز وهى فهم واستيعاب البنية العميقة للترميز . . وبفهمه للبنية العميقة للترميز يستطيع المتعلم أن يفهم الجدل القائم بين المقولات المطروحة فى « البنية السطحية » وكذلك الوحدة بين البنيات « السطحية ، والعميقة » .

فى طريقتنا نحن ، يأخذ الترميز مبدئياً شكل صورة أو يمثل بمثل موجود حقيقياً ، أو موجوداً يركبه المتعلمون . . وعندما يعرض مثل هذا التصوير أو التمثيل كشريحة ينجز المتعلمون فعالية أساسية لعملية المعرفة إذ يكتسبون مسافة عن الشىء القابل للمعرفة . ويتعرض المربون كذلك بتجربة

المسافة هذه حتى يتمكن المربون والمتعلمون معاً من التفكير نقدياً فى البنى القابلة للمعرفة والذى يتوسط بينهم . . إن هدف فك الرموز (فرز الرموز) هو الوصول إلى مستوى المعرفة الناقدة ، ابتداءً من خبرة المتعلم بالموقف فى الإطار الحقيقى .

ولما كان التصوير المرمز هو الشىء القابل للمعرفة متوسطاً بين ذوات عارفة كان فك الرموز (فرز الرموز) - حل الترميز إلى عناصره المكونة - هو العملية التى يدرك بها الذوات العارفة العلاقات بين عناصر الترميز والوقائع الأخرى التى يطرحها المحيط الحقيقى - تلك العلاقات التى لم تدرك من قبل . . فالترميز يصور بعداً معيناً من الواقع كما يعيشه الأفراد ، يهتم بطرح هذا البعد لتحليلهم فى محيط غير المحيط الذى يعيشون فيه . . وهكذا فالترميز يحول ما كان طريقة فى الحياة فى الإطار الحقيقى إلى مدرك حسى فى الإطار النظرى . . وبدلاً من أن يتلقى المتعلمون المعلومات حول هذه الواقعة أو تلك ، يحللون جوانب من خبراتهم الوجودية الذاتية المصورة فى الترميز . .

الخبرة الوجودية كل . . وعند تسليط الضوء على إحدى زواياها وإدراك الترابط بين تلك الزاوية وغيرها ، ينزع المتعلمون إلى استبدال الرؤية المجزأة للواقع برؤية كلية . . ويعنى هذا من وجهة نظر نظرية المعرفة أن الديناميكية بين ترميز المواقف الوجودية وفك الرموز (فرز الرموز) انهماك المتعلمين فى إعادة تركيب إعجابهم السابق بالواقع باستمرار . .

ونحن لا نستخدم مفهوم الإعجاب هنا بالطريقة المألوفة ، أو بمعناه الأخلاقى أو الجمالى ، ولكن بمدلول فلسفى مصاحب خاص . . أن تعجب يعنى تشىء اللا أنا . . إنها عملية جدلية تخص الإنسان كإنسان ، وغيره عن الحيوان . . وترتبط مباشرة بالبعد الإبداعى للغته . . فإن تعجب تقتضى ضمنياً أن يراقب الإنسان بانتباه ضد اللا أنا . . لكى يفهمها . . ولهذا السبب، ليست هناك عملية معرفة دون الإعجاب بالشىء قيد المعرفة . . وإذا كانت عملية المعرفة عملية ديناميكية ، ليست هناك معرفة كاملة أبداً - إذن لكى يعرف الإنسان عليه ألا يعجب بالشىء وحسب ، بل يجب عليه دائماً أن يعجب مجدداً بإعجابه السابق وعندما نعجب من جديد بإعجابنا السابق (دائماً أعجب فإننا فى ذات الوقت نعجب بعملية الإعجاب والشى المعجب به حتى نتمكن من التغلب على الأخطاء التى ارتكبناها فى إعجابنا السابق . . ويقودنا هذا الإعجاب من جديد إلى إدراك سابق) . . .

وفى عملية فك رموز تصويرات مواقفهم الوجودية ، وبإدراك مدركاتهم السابقة ، يشك المتعلمون تدريجياً ، ويترددون، ويتهيبون فى أفكارهم السابقة عن الواقع ويبدأون فى استبدالها بمعرفة أكثر نقدية فأكثر . .

ولنفترض أننا سنتقدم لمجموعات من بين الطبقات المسُودة (المهيمن عليها) ترميزات تصور تقليدهم لنماذج من ثقافة سادتهم حاكميهم (المهيمنين عليهم) - وهى نزعة طبيعية

فى الوعى المضطهد فى لحظة معينة ربما أنكر المحكومون المسودون (المهيمن عليهم) دفاعاً عن النفس حقيقة الترميز . . وعندما يعمقون تحليلاتهم ، على كل حال ، سيبدأون يدركون أن تقليدهم الظاهر لنماذج المهيمنين الشاذة هو نتيجة لاستيطانهم لهذه النماذج ، وفوق كل شيء نتيجة للأساطير حول تفوق تلك الطبقات السائدة التى تجعل المسودين يشعرون بالنقص . . وما يبدو فى الواقع أنه مجرد استيطان يظهر فى التحليل الساذج تقليداً . . جوهرياً ، كما أشير فى تعليم المقهورين ، عندما تتبع الطبقات المسودة أسلوب حياة السادة فذلك مرده إلى أن السادة يعيشون ضمن (فى داخل) المسودين ولا يستطيع المسودون طرد السادة إلا بالابتعاد عنهم وتشيئهم . . وعندئذٍ فقط يستطيعوا أن يدركوا أنهم نقيضاً لهم كما يقول (فانون) .

وعلى أى حال ، وإلى حد أن استيطان قيم السادة ليس ظاهرة فردية . وحسب ، ولكنه ظاهرة اجتماعية وثقافية ، يجب أن يتحقق الطرد عن طريق نوع من العمل الثقافى تلغى فيه الثقافة ثقافة أخرى . أى أن الثقافة كنتاج مستيطن يكيف بدوره نشاطات الإنسان اللاحقة ، يجب أن تصبح موضع معرفة الإنسان حتى يتمكن من إدراك قوتها التكيفية . . يحدث الفعل الثقافى فى مستوى البنية القومية . . ولا يمكن أن يفهم إلا عن طريق ما يسميه جدلية التحديد التظافرى (أنظر كذلك تقريرنا السنوى) هذه الوسيلة التحليلية تمنعنا من السقوط فى التعليلات الميكانيكية، بل أسوأ من ذلك الفعل الميكانيكى . . إن فهم

ذلك يحول دون الدهشة لأن تظل الخرافات الثقافية قائمة بعد تحويل البنية التحتية ، حتى لو بفعل الثورة . .

وعندما يكون حكم ثقافة جديدة مناسباً ولكن تعوقه فضلة ثقافية مستيطنة ، فإن هذه الفضلة (ترسبات) والخرافات يجب أن تطرد بواسطة الثقافة . . فالعمل الثقافى ، والثورة الثقافية ، يشكلان ، فى مراحل مختلفة ، أسلوب هذا الطرد . .

يجب أن يكتشف المتعلمون الأسباب التى تكمن وراء العديد من اتجاهاتهم نحو الواقع الثقافى وبالتالى يواجهون الواقع بكيفية جديدة . . ولكى يحققوا هذا من الضرورى الإعجاب مجدداً بإعجابهم السابق وتتأسس قدرة المتعلمين على المعرفة الناقدة تتجاوز مجرد إبداء الرأى بكثير أثناء عملية الكشف عن علاقاتهم بالعالم التاريخى ـ الثقافى الذى يوجدون فيه ومعه .

نحن لا ننوى أن نقترح أن المعرفة النقدية لعلاقات إنسان العالم تنشأ كمعرفة لغوية لفظية خارج الممارسة . . ذلك أن الممارسة تتدخل فى المواقف الملموسة التى يتم ترميزها لغرض التحليل النقدى . . ولهذا السبب عينه فتحليل الترميز من حيث « بنيته العميقة » يعنى إعادة بناء الممارسة السابقة ، وامتلاك القدرة على ممارسة جديدة ومختلفة . . إن العلاقة بين المحيط النظرى الذى يتم فيه تحليل التصويرات المرمزة للوقائع الموضوعية والمحيط الملموس الذى تحدث فيه الوقائع لا بد أن يصار حقيقياً .

إن مثل هذه التربية لا بد أن تتميز بالالتزام وهذا يعنى ضمنياً الحركة من المحيط الملموس التى توفر الوقائع الموضوعية إلى المحيط النظرى حيث تحلل هذه الوقائع بعمق ، ثم الرجوع إلى المحيط الملموس حيث يجرب الأفراد أشكالاً جديدة من الممارسة . .

وقد يبدو أن بعض أحكامنا تدافع عن المبدأ القائل بأن على المتعلمين ، بصرف النظر عن مستواهم ، أن يعيدوا بناء عملية المعرفة الإنسانية على أساس مطلق وفى الحقيقة عندما نفكر فى تعلم القراءة والكتابة بين الكبار أو التربية بشكل عام باعتبارها عملية معرفة، فإننا ندعو إلى التأليف بين معرفة المربى وبين معرفة المتعلمين الذى لم يحقق إلا الحد الأدنى من التنظيم . . وهو تأليف يتحقق فى الحوار . . إن دور المربى هو أن يقترح قضايا حول المواقف الوجودية المرمزة حتى يساعد المتعلمين على الوصول إلى نظرة تزداد لواقعهم . . وهكذا فدور المربى كما تراه هذه الفلسفة أكبر من كل النواحى من دور زملائه من يقتصر واجبهم على نقل المعلومات التى يستظهرها المتعلمون . . يستطيع مثل هذا المربى ببساطة أن يكرر ما قرأه ، وكثيراً ما يساء فهمه (فهم ما قرأه) حيث أن التربية بالنسبة له لا تعنى عملية المعرفة . . على العكس ، فالمربى من النموذج الأول ذات عارفة يقف وجهاً لوجه مع ذوات عارفة أخرى . لا يستطيع أبداً أن يكون مجرد مستظهر بل شخصاً يكيف معرفته من جديد باستمرار ، ويستحث المعرفة بين طلبته . . فالتربية بالنسبة له هو بيداغوجية المعرفة . . أما

المربى الذى يبنى طريقة الاستظهار الصرف فهو مضاد للحوار ، ونقل المعرفة عنده لا تتغير . . وبالمقابل فالحوار بالنسبة للمربى الذى يختبر/يعانى عملية المعرفة مع طلبته هو ختم عملية المعرفة . . وعلى كل حال ، فهو يدرك أنه ليس كل حوار فى حد ذاته دليل على علاقة معرفية حقيقية .

إن المذهب العقلى السقراطى - الذى أخطأ فهم تعريف المفهوم على أنه معرفة الشىء المعرّف وأن هذه المعرفة فضيلة - لم يشكل بيداغوجية حقيقية للمعرفة ، بالرغم من أنها كانت حوارية . . وقد فشلت نظرية أفلاطون فى الحوار فى أن تتجاوز النظرية السقراطية فى اعتبار التعريف معرفة ، ولو أن أحد الشروط الأفلاطونية الأساس للمعرفة أن يكون الإنسان قادراً على تحقيق الوعى وبالرغم من أنه لا مناص للإنسان من الانتقال من الفكر إلى العقل أو المنطق ليصل إلى الحقيقة . . فتحقيق الوعى لدى (أفلاطون) لا يشير إلى ما كان يعرفه الإنسان أو ما لم يعرفه أو ما عرفه بشكل سىء ، بخصوص علاقته الجدلية مع العالم ، بل يرتبط بما كان يعرفه الإنسان ذات يوم ونسيه فى المهد . فالمعرفة أن تعرف يعنى أن تتذكر أو تسترجع المعرفة المنسية . . أن إدراك كل من الفكر والمنطق والتغلب على الفكر بالمنطق لا يحدث فى مرحلة علاقة الإنسان - الكون بل فى المجهود لتذكر أو إعادة اكتشاف المنطق الذى كان منسياً . .

ولكى يصبح الحوار طريقة للمعرفة الحقيقية ، لا بد أن تتناول الذوات العارفة الواقع عملياً لكى ينمو عن العلاقات

الجدلية التى تفسر بشكل الواقع . . وهكذا فالمعرفة ليست تذكر ما كان معروفاً من قبل وثم نسيانه . . كما لا يمكن التغلب على الفكر (باللوغوس) بالمنطق بمعزل عن علاقة الإنسان الجدلية مع عالمه ، وبمعزل عن نشاطه التأملى فى العالم . .

إذن لكى تصبح عملية محو الأمية عملية معرفة ، فلا بد من إشغال المتعلمين فى المشكلة المستمرة لمواقفهم الوجودية . . ويوظف هذا التمشكل كلمات توليدية يختارها المربون فى أبحاثهم الأولية فيما نسميه بالعالم اللغوى الأدنى لمتعلمى المستقبل . . تختار الكلمات أولاً لقيمتها البراجماتية ، أى باعتبارها علاقات / إشارات لغوية تستدعى فهماً مشتركاً فى إقليم ما أو منطقة معينة من نفس المدينة أو البلد (مثلاً فى الولايات المتحدة تحمل كلمة الروح دلالة خاصة فى المناطق السوداء لا تحملها بين البيض) ، وثانياً بسبب صعوباتها الصوتية التى تقدم تدريجياً لمن يتعلمون القراءة والكتابة . . وأخيراً ، من المهم أن تكون الكلمة التوليدية الأولى ذات ثلاثة مقاطع وعندما تقسم إلى مقاطعها يكون كل منها أسرة مقطعية يستطيع أن يجرب العديد من التوافقيات المقطعية عند رؤية الكلمة للمرة الأولى . .

وبعد أن يتم اختيار سبع عشرة كلمة توليدية ، تكون الخطوة التالية هى ترميز سبعة عشر موقفاً وجودياً مألوفاً لدى المتعلمين . . ثم يتم إدخال الكلمات فى المواقف الواحدة تلو الأخرى منظمة حسب تزايد صعوبتها الصوتية . . وكما سبق وأن أكدنا فهذه الترميزات أشياء قابلة للمعرفة تتوسط الذوات

العارفة ، من مربين ، ومتعلمين ، ومتغلمين - مربين . . وتطور عملية المعرفة عندهم في حلقات النقاش الثقافية التى تؤدي وظيفة المحيط الثقافى . .

وفى البرازيل وقبل تحليل المواقف الوجودية للمتعلم والكلمات التوليدية التى تحتويها ، افترضنا ترميز موضوع علاقات الإنسان - العالم عامة وبناء على اقتراح التربويين التشيليين تمت مناقشة هذا البعد الهام فى آن واحد مع تعلم القراءة والكتابة والأهم من ذلك هو أن يكون الشخص الذى يتعلم الكلمات منهمكاً في ذات الوقت بالتحليل النقدى للإطار الاجتماعى الذى يوجد فيه الإنسان مثلاً كلمة (حى قذر مزدحم بالسكان) فى ريودى جانيرو فى البرازيل وكلمة (مخيم) فى تشيلى ، تصوران ، بما لكل منهما من ظلال دلالية دقيقة نفس الواقع الاجتماعى ، والاقتصادى ، والثقافى للأعداد الفقيرة من ساكنى الأحياء المزدحمة بالسكان . . وإذا ما استعملت كلمتا (كولمبيا وفولا) باعتبارهما كلمات توليدية بالنسبة لقاطنى الأحياء الفقيرة في البرازيل وتشيلى فلا بد أن تمثل الترميزات مواقف تتعلق بالأحياء الفقيرة .

هناك الكثير ممن يعتبرون سكان الأحياء الفقيرة هامشيين ، جوهرياً ، شريرين وأنهم أدنى منزلة . . ونحن نوصى لمثل هؤلاء الناس بالتجربة المفيدة لمناقشة المواقف المتعلقة بالأحياء الفقيرة مع ساكنى هذه الأحياء أنفسهم لأن بعض هؤلاء النقاد غالباً ما كانوا مخطئين ، فمن الممكن أن يصححوا مواقفهم الخرافية، وربما اتخذوا مواقف أكثر

علمية . . وربما تجنبوا القول بأن الأمية ، والكحولية ، والجريمة ، والمرض ، ونسبة الوفيات ، ونقص التعلم ، وسوء النظافة بين سكان الأحياء الفقيرة ، تكشف جميعها عن الطبيعة الدنيا لسكانها . . بل ربما انتهوا حتى إلى إدراك أنه إذا كان الشر الجوهرى موجوداً فهو جزء من البنيات وأن البنى هى التى يجب أن تحوّل . .

يجب الإشارة إلى أن العالم الثالث ككل ، وأكثر من ذلك فى أجزاء فيه ، يعانى نفس سوء الفهم من طرف بعض قطاعات ما يسمى بالمجتمعات المدنية . . فهم ينظرون إلى العالم الثالث باعتباره تجسيداً للشر ، والبدائية ، والشيطان ، الخطيئة والكسل، وباختصار تاريخياً غير قابل للحياة بدون المجتمعات المديرة . . إن مثل هذه النظرية المأنوية هى مصدر النزوة إلى إنقاذ العالم الثالث الذى تملكه الشيطان وذلك بتربيته وتصحيح تفكيره وفقاً لمعايير المجتمعات المديرة/الموجهة .

تنطوى هذه الأفكار على المصالح التوسعية للمجتمعات الموجهة ولا يمكن لهذه المجتمعات أن ترتبط بدول العالم الثالث كشركاء ، ذلك أن الشراكة تفترض مسبقاً المساواة، مهما اختلفت الأطراف المتساوية ، ولا يمكن أن تتحقق المشاركة بين أطراف معادية لبعضها البعض . .

ومن ثم فإن إنقاذ العالم الثالث من طرف المجتمعات الموجهة لا يمكن إلا أن يعنى السيطرة عليه فى حين تكمن

أمانيه المشروعة فى الاستقلال فى رؤاه الطوباوية : إنقاذ المجتمعات الموجهة فى ذات عملية تحرير أنفسهم . .

وبهذا المفهوم **فالبيداغوجيا** التى ندافع عنها ، والمفهومة فى أجزاء مهمة من العالم الثالث ، هى فى حد ذاتها **بيداغوجيا** ثورية . . وبسبب هذه الحقيقية بالذات فهى مليئة بالأمل ، ذلك أن الطوباوية لا تعنى أن تكون المثالية وحسب أو عبر عملى بل المشاركة فى الاتهام والإبلاغ إن بيداغوجيتنا لا يمكن أن تستغنى عن رؤية تجاه الإنسان والعالم . . فهى تصوغ/ تشكل مفهوماً علمياً إنسانياً يجد التعبير عنه فى الممارسة الحوارية حيث يدين المعلمون والمتعلمون منا ، من الواقع خلال تحليل الواقع السالب للإنسان فى الوقت الذى يعلنون فيه عن تحويله باسم تحرير الإنسان . .

ولهذا السبب ذاته فإن الإدانة والإعلان فى هذه البيداغوجيا الثورية لا يجب أن تكون كلمات جوفاء ، بل التزاما تاريخياً . . إن إدانة موقف سالب للإنسانية يتطلب اليوم وبشكل متزايد الفهم العلمى الدقيق لذلك الموقف وبالمثل فالإعلان عن تحويله يتطلب بشكل متزايد نظرية فى الفعل/العمل التحويلى وعلى كل حال فإن أياً من العمليتين لا تعنى ضمنياً بمفردها تحويل الواقع المدان أو تحقيق الواقع المعلن على العكس فالواقع المعلن باعتباره لحظة فى عملية تاريخية ، موجود بالفعل مسبقاً فى عملية الإدانة والإعلان . .

هذا ما يجعل الطبيعة الثورية لنظريتنا التربوية وممارستها

دائمة ديمومة التربية ذاتها ، والتى تشكل بالنسبة لنا حملاً ثقافياً . . كما أن اندفاعها باتجاه الرفض أو القبول لا يمكن أن يستنفذ عندما يتخلى الواقع المدان/المرفوض اليوم عن مكانه غداً للواقع الذى أعلن عنه سابقاً فى الإدانة . . وعندما لا تعود التربية ثورية ، أى عندما لا تعود الوحدة المثيرة بين الرفض/الإدانة والقبول/الإعلان فإنما مرد ذلك إلى أن المستقبل لم يعد له أى معنى بالنسبة للإنسان ، وأما لأن الإنسان خائف من مجازفة أن يعيش المستقبل باعتباره تغلب مبدع للحاضر الذى أصبح مبتذلاً . .

وعموماً فالتفسير الأخير هو الأكثر احتمالاً وهذا هو السبب فى أن الناس اليوم يدرسون الإمكانيات التى يحويها المستقبل ، لكى يروضوه ويتغلبوا عليه منسجمين مع الحاضر ، وهو ما يقرون الحفاظ عليه . . وإذا كان هناك أى كرب فى المجتمعات الموجهة مخبأ تحت ستار تكنولوجيتهم الباردة ، فإنما ينبع من تصميمهم الشديد على المحافظة على مكانتهم المدنية فى المستقبل . . ومن الأشياء الجوهرية التى يمكن أن يتعلمها العالم الثالث من المجتمعات المدنية هى ألا يعيدوا إنتاج تلك المجتمعات عندما تصبح طوباويته الحالية حقيقة واقعة . .

وعندما ندافع عن مثل هذا المفهوم التربوى - واقعى بالتحديد إلى حد أنه ثورى - أى إلى الحد الذى يرفض فيه ما هو كائن بالفعل ، ومن ثم يجد بين الرفض وتحقيقه زمن ممارسته - فنحن نحاول أن نصوغ نموذجاً من التربية يتوافق مع صيغة الوجود الإنسانى على وجه الخصوص ، وهذا تاريخى . .

ليس هناك قبول/إعلان دون رفض تماماً كما أن كل رفض يولد القبول . . أو بدون الأخير يكون الأمل مستحيلاً . . وعلى كل حال ، فالأمل فى الرؤية الثورية الحقيقية ، لا يعنى أن الرد وهو مكتوف اليدين . . فالانتظار ليس مركباً إلا إذا سعى المرء ، وقد ملأه الأمل ، عن طريق الفعل المتأمل إلى تحقيق ذلك المستقبل المعلن والذى يولد داخل الرفض .

وهذا هو سبب عدم وجود أمل حقيقى لدى أولئك الذين ينوون أن يجعلوا المستقبل يكرر حاضرهم ، ولا لدى أولئك الذين ينظرون إلى المستقبل على أنه شيء مقدر سلفاً . . فنظرة كليهما للتاريخ استسلامية مروضة . . الأول لأنهم يريدون أن يوقفوا الزمن ، والأخير لأنهم واثقون بمستقبل يعرفونه بالفعل . . وعلى العكس ، فالأمل الثورى . . ارتباط الالتزام مليئة بالمخاطر . . وذلك هو السبب فى أن المسيطرين/السادة الذين يدينون أولئك الذين يدينهم وحسب ، والذين لا يملكون ما يعلنونه سوى المحافظة على الوضع الراهن ، لا يمكن أن يكونوا طوباويين ، ولا أن يكونوا بقدر ما يتعلق الأمر بذلك.

نتبين أن **البيداغوجيا الثورية** التى تقوم على الرفض وطرح البديل كالتى يطرحها ، لا بد أن تكون عملية معرفة بالواقع المرفوض على مستوى الأبجدة وما بعد الأبجدة ، واللذين يشكلان العمل الثقافى . . ولذلك كان هذا التأكيد على المشكلة المستمرة على المواقف الوجودية **للمتعلمين** كما تمثلها الصور المرمزة . . وكلما طالت المشكلة ، كلما توغلت الذوات

فى جوهر الموضوع الممشكل كانوا أكثر قدرة على الكشف عن هـذا الجوهـر . . وكلما سبـروا أغواره ، كلمـا تجذر وعيهم المستفيق فما يؤدى إلى توعية الطبقات الفقيرة بالموقف قـد حولهم النقدى فى الواقع ، أى توعيتهم ، يجعل تحـولهم من حالة اللامبالاة إلى حالة من الرفض والقبول الطوباويين مشروعاً قابلاً للحياة . .

وعلى كل يجب على المرء ألا يفكـر أن تعلم القراءة والكتابة يسبق التوعية أو العكس . . فالتوعية تحدث متزامنة مع تعلم القراءة والكتابـة أو ما بعـدها . . فـالكلمة فى طـريقتنا التربوية ليست شيئاً جامداً أو منفصلاً عن التجربـة الوجـودية للإنسان ، ولكنها بعد لفكره ـ ولغته حول العالم .

ذلـك هو السبب فى أن المتعلمين عندما يشاركون فى التحليل النقدى للكلمات التوليدية الأولى التى ترتبط بتجربتهم الوجودية ، وعندما يركزون على أسر الكلمات المقطعية التى تنتج عن تحليلاتهم ، وعندما يدركون ميكانيكية/آلية التوافقيات المقطعية للغتهم ، يكتشفون فى النهاية مفرداتهم الخاصة فى التوافقيات الممكنة المختلفة ، وهكذا شيئاً فشيئاً ، وتعدد هذه الإمكـانـات ، وعن طـريق التمكن من الكلمـات التـوليـديـة الجديدة ، يـوسع المتعلمـون معجمهم وكذلـك قدرتهم على التعبير وذلك بتنمية خيالهم الخلاق . .

وفى بعض المناطق الخاضعة للاستصـلاح الزراعى فى تشيلى ، كتب الفلاحون المشـاركون فى بـرامج محـو الأمية

المفردات بمعداتهم على الطرق الترابية التى يعملون بها .. وكانوا يشكلون المفردات من التوافقيات المقطعية التى كانوا يتعلمونها وقد قالت ماريا أدفريرة وهى أخصائية اجتماعية عن فريق سان تياجو والتى تعمل بمعهد التدريب والبحث فى الإصلاح الزراعى قالت : « هؤلاء الرجال يزرعون الكلمة حقاً ، لم يكونوا يزرعون الكلمة وحسب ، بل يناقشون الأفكار ، وبدأوا يفهمون دورهم فى العالم بشكل أفضل وأفضل .. » .

وقد سألنا أحد أولئك الذين كانوا يزرعون الكلمة ، وكان قد انتهى من المستوى الأول لدرس محو الأمية ، لماذا لم يكن قد تعلم القراءة والكتابة قبل الإصلاح الزراعى ؟ ..

فقال ، « قبل الإصلاح الزراعى يا صديقى ، لم أكن حتى أفكر .. وكذلك الأمر بالنسبة لأصدقائى » ..

تسألنا لماذا ؟ فأجاب بتأكيد : « لأن ذلك لم يكن ممكناً .. كنا نعيش تحت الأوامر .. ولم يكن لدينا إلا أن ننفذ الأوامر .. لم يكن لدينا شيء نقوله .. » .

إن إجابة هذا الفلاح البسيطة هى تحليل واضح جداً لثقافة الصمت ، فأن توجد فى « ثقافة الصمت » يعنى أن تعيش وحسب ، وينفذ الجسم أوامر مؤقتة ، ويصبح التفكير صعباً ، والتلفظ بالكلمة ممنوعاً ..

وقد قال أحد الرجال الآخرين فى نفس المحادثة « عندما

كانت كل هذه الأرض عزبة واحدة (العادية) لم يكن هناك أى سبب للقراءة والكتابة، إذ إننا لم نكن مسئولين عن أى شىء . . كان الرئيس/السيد يصدر الأوامر وكنا نطيعها . . لماذا القراءة والكتابة؟ . . أما الآن فالمسألة مختلفة . . خذنى أنا مثلاً . . ففى المستوطنة لم أكن مسؤولاً عن عملى وحسب ، أسوة بكل الرجال الآخرين ، بل مسؤولاً كذلك عن إصلاح المعدات . . وعندما بدأت لم أكن أستطيع القراءة ، ولكن سرعان ما أدركت أننى أتخيل وضعى عندما كنت أذهب إلى سانتياغو لشراء قطع الغيار . . لم أستطع أن أتكيف كنت خائفاً من كل شىء من المدينة الكبيرة ، شراء الأشياء خطأ ، أو أن يتم غشى . . أما الآن فالأمر مختلف تماماً . . » .

ولنلاحظ كيف وصف هذا الفلاح وبدقة تجربته السابقة كأمى . .

عدم ثقته ، خوفه السحرى (ولو أنه منطقى) من العالم ، جبنه . . ولاحظ الإحساس بالطمأنينة فى تكراره « أما الآن فالأمر مختلف تماماً » . .

وفى مناسبة شبه مختلفة سألنا أحد « زارعى الكلمة الآخرين » ، ماذا أحسست أيها الصديق عندما استطعت أن تكتب وتقرأ كلمتك الأولى ؟ . . . كنت سعيداً لأنى اكتشفت أنه بمقدورى أن أجعل الكلمات تنطق . .

وقد نقل (داريكو سالاس) لقد استوقفنا فى أحاديثنا مع

الفلاحين الصور التى استخدموها للتعبير عن اهتمامهم بمحو أميتهم وارتياحهم لذلك . . فمثلاً قال أحدهم :

« لقد كنا عمياناً فيما مضى ، والآن سقط القناع من على أعيننا » . . « لقد جئت لأتعلم كيف أوقع إسمى فقط . لم أكن أصدق أبداً أنه سيكون بمقدورى أن أتعلم أقرأ كذلك فى سنى هذه » . . « فيما مضى بدت الحروف وكأنها دمى صغيرة أما اليوم فإنها تقول شيئاً ما إلىَّ ، وأستطيع أن أجعلها تتكلم » . .

ويواصل . . . من لمؤثر أن نلاحظ غبطة الفلاحين بتفتح عالم الكلمات أمامهم . . كانوا يقولون أحيانـاً « نحن متعبون ورؤوسنا مصدوعة ، ولكن لا نريد أن نغادر هنا دون أن نتعلم القراءة والكتابة » .

وقـد تم تسجيـل الكلمـات التـاليـة خـلال البحث فى الموضوعات التوليدية . . فهى تحليل أتى لرموز موقف وجودى مرمز . .

« ترى منزلاً هناك ، يائساً ، كما لو كان مهجوراً . . يبدو البيت أسعد عندما ترى فيه طفلاً . . فهو يضفى المزيد من البهجة والطمأنينة للذين يمرون به . . يصل رب الأسرة إلى بيته مرهقاً من العمل ،، قلقاً ، موجعاً ، ويستقبله طفله الصغير بعناق كبير حار ، لأن الطفل الصغير ليس جامداً كـالشخص الكبير . . تبدأ السعادة تغمر الأب لمجرد رؤية طفله الصغير ثم يسعد حقاً . . إن رغبة ابنه فى أن يرضيه تثيره . . ويصبح الأب أكثر طمأنينة ، وينسى مشاكله » . .

لاحظ مرة أخرى بساطة التعبير ، العميق والرائع فى آن واحد فى لغة الفلاح .. هذه هى الجماهير التى يعتبرها أنصاره المفهوم الغذائى فى محو الأمية ، جاهلة تماماً !!

فى عام 1968 م نشر فريق من الأورجواى كتاباً صغيراً بعنوان «**تعيش كما تستطيع**» وقد أخذت محتوياته من تسجيلات صوتية لدروس محو الأمية بين سكان الأرياف .. وقد بيعت طبعته الأولى والتى كان قوامها خمس عشرة ألف نسخة فى العاصمة (مانفاديو) خلال خمس عشرة يوماً، وكذلك الحال بالنسبة للطبعة الثانية .. وفيما يلى مقتطفات من هذا الكتاب ..

- ألوان الماء ..
- الماء ؟ .. الماء ؟ .. لماذا يستعمل الماء ؟ ..
- أجل ، أجل ، لقد رأينا ذلك (فى الصورة) .
- آه ما أبعد قريتى الأصلية ..
- أتذكر تلك القرية ..
- المجرى حيث ترعرعت ، أنت تعلم ، أنى ترعرعت هناك ، طفولة ترتحل من مكان إلى آخر .. إن لون الماء يعيد إلىَّ ذكريات طيبة ، ذكريات جميلة .
- لماذا يستعمل الماء ؟ ..
- يستعمل الماء للاغتسال .. تستعمله لغسل الملابس ، والحيوانات التى فى الحقول كانت تذهب إلى هناك لتشرب ، وقد اغتسلنا هناك أيضاً ..

● هل استعملت الماء للشرب كذلك ؟ . .

● نعم عندما كنا عند المجرى ولم يكن لدينا ماء للشرب ، شربنا من المجرى . . أذكر كيف ذات مرة فى عام 1945 جاءنا وباء من الجراد من مكان ما ، وكان علينا أن نصطاده من الماء . . كنت صغيراً ، ولكنى أذكر أنى أخذت الجراد بيدى على النحو لآتى .

ولم يكن لى غيرها . . وأذكر كيف كان الماء ساخناً عندما كان هناك جفاف وكاد المجرى يكون جافاً تماماً . . كان الماء قذراً ، وحلاً وساخناً ، وبه مختلف الأشياء . . ولكن علينا أن نشربه أو نموت عطشاً . .

كل الكتاب بهذا الشكل ، مختلفاً فى أسلوبه عبر فيه المؤلفون : تلك الجماهير المجهولة ، زراع الكلمات الباحثون عن الخروج من « ثقافة الصمت » ، بقوة عن العالم . .

نعم ، يجب أن تكون هذه نصوص القراءة لمن يتعلمون القراءة والكتابة ، وليس رأت أيفا العنب .

« جناح الطير

إذا كنت تطرق مسماراً ، فكن حذراً ألا تصدم أصبعك »

فالتعصبات الفكرية وأكثر من ذلك التعصبات الطبيعية هى المسؤولة عن الفكرات الساذجة والضحلة التى تذهب إلى أن الجماهير لا تستطيع أن تكتب نصوصها بنفسها ، أو أن تسجل أحاديثها التى لا قيمة لها ما دامت تفتقر إلى معنى . . وبمقارنة ما قاله «زارع الكلمات» فى المراجع المذكورة أعلاه عامة

بدروس القراءة التى يكتبها مؤلفون متخصصون، اقتنعنا أن لا أحد يختار نصوص الأخصائيين إلا إذا كان يفتقر إلى الذوق تماماً أو كان يعانى من عجز علمى مؤسف. .

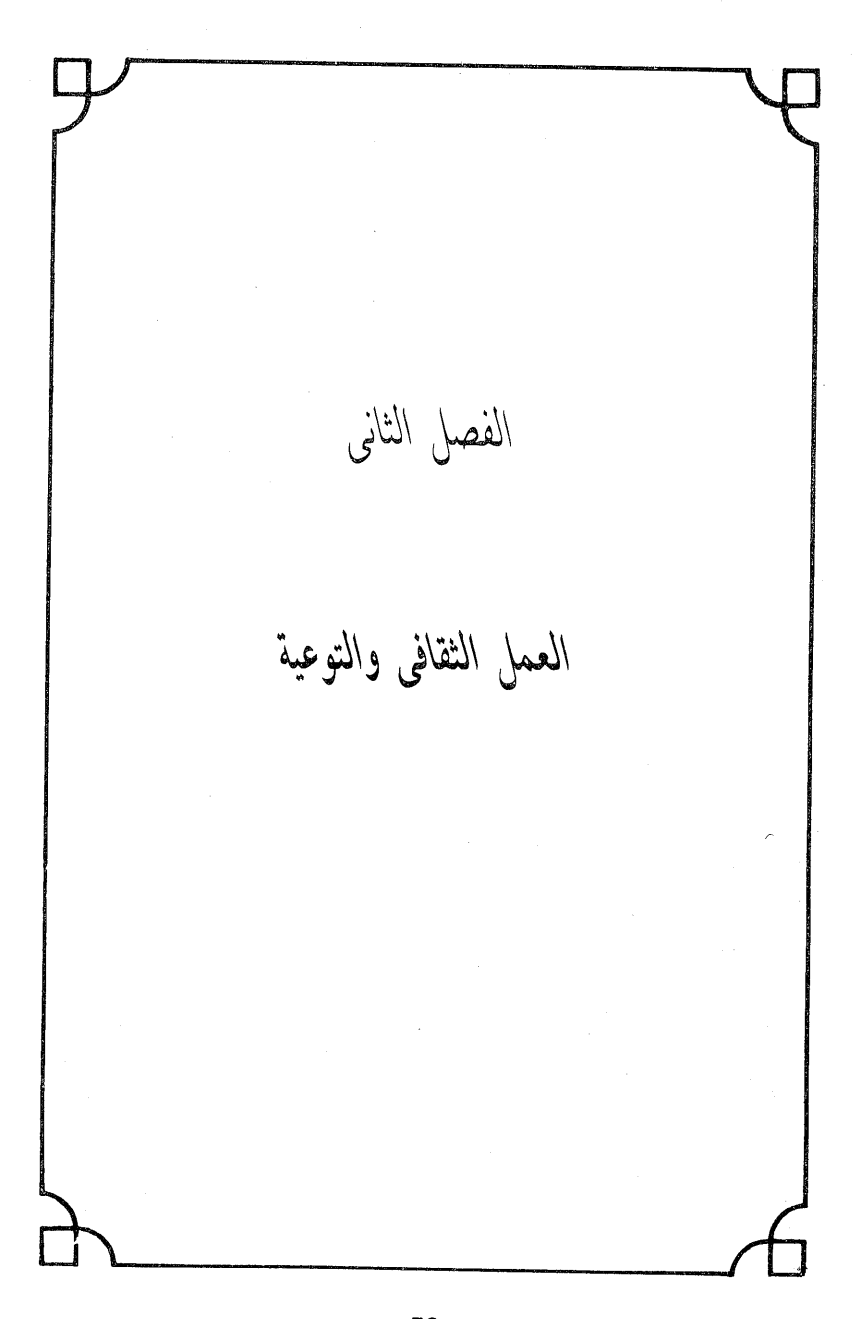
ولنتخيل كتاباً كتب كلية بلغة الجماهير البسيطة ، الشعرية والحرة ، تشترك فيه مختلف التخصصات انطلاقاً من روح الحوار الصادق . . وسيكون دور الفرق هو التوسع فى أجزاء معينة من الكتاب من منطلقات مشكلته. . مثلاً يعالج الجزء الخاص باللغويات ببساطة ، ولكن دون إسفاف، بقضايا جوهرية لفهم المتعلم الناقد للغة . . دعونى أؤكد مرة أخرى أنه لما كان أحد الأوجه المهمة للعمل فى محو الأمية بين الكبار هو تنمية القدرة على التعبير ، فإن الجزء المتعلق باللغويات سيطرح للمتعلمين موضوعات للنقاش تتراوح بين زيادة . المعجم اللغوى إلى مسائل تتعلق بالتواصل - بما فى ذلك دراسة المترادفات ونقيض المعنى، بما فى ذلك تحليله، للكلمات فى البنية اللغوية ، واستعمال الاستعارة ، التى تمتلك الجماهير العامة زمامها . . وقد يوفر جزء آخر الأدوات للتحليل الاجتماعى لمحتوى النصوص . .

وبالطبع لن تستعمل هذه النصوص لمجرد القراءة الميكانيكية التى تترك القراء دون أى فهم لما هو حقيقى . . وتمشياً مع طبيعة هذه البيداغوجيا يصبحون موضوع التحليل فى حلقات القراءة . .

أضف إلى ذلك الواقع الكبير الذى سيتكون لدى أولئك

الـذين يتعلمون القـراءة والكتابـة وكـذلـك الـطلبـة من ذوى المستويات المتقدمة ، بأن يعرفوا أنهـم يقرأون ويناقشون أعمالاً لرفاقهم . .

وللقيـام بمثـل هـذا العمـل ، من الضـرورى الإيمـان بـالجماهيـر ، والتضـامن معهـا . . من الضـرورى أن نكـون طوباويين ، بالمعنى الذى استخدمنا فيه الكلمة . .



الفصل الثانى

العمل الثقافى والتوعية

الوجود فى العالم ومع العالم :

من المناسب عند هذه النقطة أن نقدم تحليلاً صريحاً ومنظماً لمفهوم التوعية[1] . .

يجب أن تكون نقطة البداية لمثل هذا التحليل الاستيعاب الناقد للإنسان ، ككائن يوجد فى العالم ومعه . . ولما كان الشرط الأساسى للتوعية هو أن تكون وسيلتها (أى كائن واعٍ) فقد كانت التوعية شأنها شأن التربية عملية إنسانية تخص الإنسان بالذات وتقتصر عليه وحده . . فالإنسان لا يوجد مع غيره فى العالم وحسب بل مع العالم باعتباره كائناً واعياً . . والإنسان باعتباره كائناً مفتوحاً وحده القادر على تحقيق تلك العملية المعقدة المتمثلة فى تحويل العالم بفعله وفى نفس الوقت إدراك العالم والتعبير عنه بلغته الخلاقة . .

فى مقدور الإنسان أن يفى بشرط الوجود مع العالم الضرورى لأنه باستطاعته أن يقف على مسافة موضوعية منه . . ودون هذا النشؤ ، الذى ينشىء به الإنسان نفسه أيضاً ، سيكون الإنسان محدوداً بالوجود فى العالم مفتقراً بذلك إلى المعرفة ـ الذاتية ومعرفة العالم على حد سواء . .

وبعكس الإنسان فالحيوانات موجودة فى العالم وحسب غير قادرة على أن تنشيء نفسها بنفسها ـ أو العالم فهى تعيش حياتها خارج الزمن وبالمعنى الصريح ، تعيش مغمورة فى الحياة دون إمكانية الخروج منها ، متكيفة مع الواقع وملتزمة به . . أما الإنسان ، فعلى العكس حيث يستطيع أن يقطع هذا الالتزام وأن يسمو على مجرد الوجود/ الكينونة فى العالم ، وأن يضيف إلى الحياة التى يحياها الوجود الذى يصيغه . . وهكذا يصبح الوجود أسلوباً حياتياً مناسباً للكائن القادر على التحول ، على الإنتاج ، واتخاذ القرار ، والإبداع ، والتعبير عن نفسه . .

أما الكائن الذى يحيا وحسب فهو غير قادر على التفكير فى نفسه أو معرفتها وهو يحيا فى العالم ، نجد الذات/الشخص . . الموجودة تفكر فى حياتها ضمن مجال الوجود ذاته ويتساءل عن علاقته مع العالم . . ومجال وجوده هو مجال العمل ، والتاريخ ، والثقافة ، والقيم ـ المجال الذى يختبر فيه الإنسان الجدل بين الحتمية والحرية وما لم يقطع الإنسان التزامه بالعالم ويخرج منه باعتباره هدفاً له فسيظل الإنسان مجرد كائن محتوم ، مسير وسيصبح التفكير فى تحريره مستحيلاً إن الكائنات التى تستطيع التفكير فى حقيقة أنها

محتومة/مسيرة وحدها القادرة على تحرير نفسها ولا تكون نتيجة ذلك التأمل الواعى الغامض وغير الملتزم وحسب ، بل وممارسة الفعل التحويلى العميق فى الواقع المحدد/المسير . . فالوعى بالواقع والفعل فيه إذن مكونات لا مناص عنها لعملية التحويل التى يصبح بها الإنسان كائناً علائقياً ومما يميز وعى الإنسان وفعله عن مجرد الاتصالات الحيوانية مع العالم هو تفكرها ، وعهديتها ، ووقتيتها ، وسموها المتميز . . فاتصالات الحيوانات بالعالم ليست نقدية . . وهى لا تتعدى تداعى الصور الحسية عن طريق الخبرة . . وهى منفردة وليست جماعية . . فالحيوانات لا تحدد أهدافاً وهى موجودة على مستوى الانغماس وعليه فهى ليست زمانية .

إن الالتزام/المشاركة والمسافة الموضوعية ، وفهم الواقع باعتباره شيئاً ، وفهم أهمية فعل الإنسان فى الواقع الموضوعى ، والتواصل الخلاق حول الشىء عن طريق اللغة ، وجماعية الاستجابات نحو تحدٍ معين ، كل هذه الأبعاد المتنوعة تشهد على وجود التفكير النقدى فى علاقات الإنسان بالعالم . . فالوعى يتكون من الجدل الناجم عن تشىء الإنسان للعالم وفعله فيه وعلى كل فالوعى مجرد انعكاس للواقع المادى أبداً بل إنه التفكير فيه . .

وإذا كان صحياً أن الوعى مستحيل بدون العالم الذى يشكله، فمن الصواب أيضاً أن هذا العالم مستحيل هو الآخر ما لم يصبح العالم ذاته عند تشكيل الوعى هدفاً لتفكير الوعى النقدى. . وهكذا لما كانت الوضعية الميكانيكية تنكر الإنسان

كانت غير قادرة على تفسير الإنسان والعالم، تماماً كما هو الحال بالنسبة للمثالية الأنانية إذ أنها تنفى العالم..

فالوعى بالنسبة للوضعية الميكانيكية هو مجرد نسخة من الواقع الموضوعى.. وتختزل الأنانية العالم إلى مجرد نزوة من صنع الوعى.. ففى الحالة الأولى يكون الوعى عاجزاً عن تجاوز تكييفه بالواقع وفى الحالة الثانية وبقدر ما يخلق الوعى الواقع.. فهو مبدأ أولى للواقع وفى كلتا الحالتين فالإنسان غير منشغل بتحويل الواقع.. إذ أن ذلك سيكون مستحيلاً بالمعايير الموضوعية لأن الوعى نسخة طبق الأصل للواقع، بالنسبة للموضوعية هى هدف الواقع وعندئذٍ يتحول الواقع من ذاته.. كما أن نظرة الأنانية لا تمشى هى الأخرى مع فكرة تحويل الواقع، ما دام تحويل واقع حياتى وهكذا لا يمكن أن تكون هناك ممارسة حقيقية فى كلا المفهومين عن الوعى.. فالممارسة غير ممكنة إلا حيث يتم الحفاظ على جدلية الموضوعى - الذاتى..

كما أن السلوكية تعجز أيضاً عن فهم جدلية علاقات الإنسان - العالم.. ففى الشكل المسمى **بالسلوكية الميكانيكية**، يتم نكران الإنسان لأنه ينظر إليه على أنه آلة.. أما الشكل الثانى المسمى **بالسلوكية المنطقية**، فهى الأخرى تنفى الإنسان حيث أنها تؤكد أن وعى الإنسان مجرد تجريد لا يمكن أن تؤسس عملية التوعية على أى من هذه التفسيرات الناقصة لعلاقات الإنسان - العالم.. فالتوعية ليست قابلة للحياة لولا أن وعى الإنسان، بالرغم من أنه مشروط قادر على

إدراك أنه مشروط ويعلل هذا البعد النقدى للوعى تلك الأهداف التى يحددها الإنسان على أنشطتهم التحويلية فى العالم . . ولأن الإنسان قادر على أن يكون لديه أهداف ، فقد كان وحده قادر على تصور نتيجة أنشطته حتى قبل البدء فى الفعل المقترح . . فالإنسان كما يبين **ماركس** بجلاء كائن يستطيع أن يتخيل :

إننا نفترض وجود العمل مسبقاً بشكل يطبعه على أنه محدود بالإنسان وحده . . فالعنكبوت يقوم بعمليات تشبه تلك التى يقوم بها الناسج ، كما أن النحلة فى بناء خلاياها تخجل الكثيرين من المعماريين غير أن ما يميز أسوأ معمارى عن أحسن نحلة هو أن المعمارى يشيد بناءه فى الخيال قبل أن يشيده على الواقع . .

وبالرغم من أن النحلة كأخصائى خبير تستطيع أن تتعرف على الزهرة التى تحتاجها لصنع العسل ، فهى لا تغير تخصصها . . ولا يمكنها أن تنتج منتجات جانبية . فنشاطها فى العالم لا يصاحبه التشيىء ويفتقر إلى التفكير الناقد الذى يميز مهمات الإنسان وفى حين تتكيف الحيوانات مع العالم من أجل البقاء ، يكيف الإنسان العالم لكى يكون أكثر . . وفى تكييف نفسها من أجل البقاء ، دون أهداف يتوجب تحقيقها وخيارات لا بد من القيام بها ، لا تستطيع الحيوانات حيونة العالم . . إذا ستكون حيونة العالم مرتبطة بشكل وثيق بحيونة الحيوانات وهذا يفترض أن لدى الحيوانات وعياً مسبقاً بأنها غير كاملة ، مما يشغلها بالبحث المستمر . . وعلى كل ، ففى الواقع وفى الوقت

الذى يبنى فيه النحل خلاياه بمهارة ويصنع العسل يظل النحل نحلاً فى علاقته مع العالم .

أما بالنسبة للإنسان ، باعتباره كائناً ممارساً ، فإن تحويل العالم يعنى أنسنته، حتى لو كانت أنسنة العالم لا تدل بعد على أنسنة الإنسان . . وقد تعنى ببساطة تلقيح العالم بحضور الإنسان الغريب والخلاق ، وطبعه ببصمات أعماله . . ويمكن أن تقود عملية تحويل العالم ، والتى تعكس هذا الحضور للإنسان ، إلى أنسنته ، وكذلك لا أنسنته ، أى إلى نموه أو تناقصه . . هذه البدائل تكشف للإنسان عن طبيعته المعقدة أو المركبة وتطرح مشكلة أمامه تستوجب اختيار هذا المسلك أو ذاك . . وكثيراً ما تفيده عملية التحول هذه ذاتها وتفيد حريته فى الاختيار . . ومع ذلك ، ولما كان الإنسان يخصب العالم بحضوره المتأمل/المفكر ، كان الإنسان وحده القادر على الأنسنة واللاأنسنة فالأنسنة هى طوباويته التى يعلنها بإرادة العمليات اللامؤنسنة . .

إن تأملية الإنسان غائبة علاقاته بالعالم ما كانت لتكون ممكنة لو لم تحدث هذه العلاقات فى محيط تاريخى ومادى . . ليس هناك غائبة دون تفكير نقدى كما أنه لا معنى للغائبة خارج مثالية من الأحداث الزمنية المتواصلة . . أو بالنسبة للإنسان ليس هناك هنا بالنسبة إلى هناك دون أن تكون مرتبطة بالآن ومن قبل وبمسبقاً وما بعد . وهكذا فعلاقات الإنسان بالعالم تاريخية فى جوهرها ، تماماً كالإنسان نفسه . . فالإنسان لا يصنع التاريخ الذى يصفه وحسب . بل إنه يستطيع أن يسرد تاريخ هذا الصنع المتبادل . . وكما يقول **تيلهارك تشوردن**

فيحوله إلى إنسان خلال عملية التطور ، يصبح الإنسان قادراً على أن يكون له سيرة . . وبالعكس فالحيوانات معمورة فى زمن هو ملك للإنسان وليس للحيوان .

هناك فارق جوهرى آخر بين علاقات الإنسان بالعالم واتصالات الحيوانات بالعالم : فالإنسان وحده الذى يعمل . . فالحصان مثلاً يفتقد ما يميز الإنسان وحده ، وهو يشير إليه **ماركس** فى مثاله عن النحل ، ففى نهاية كل عملية جهد ، تحصل على النتيجة التى كانت موجودة بالفعل فى خيال العامل عند بدايتها (أنظر رأس المال) . . فالفعل بدون هذا البعد لا يكون عملاً . . وسواء فى الحقل ، أم فى السيرك، بعكس ما يبدو العمل الظاهر للحصان عمل الإنسان . . فالفعل عمل لا بسبب الجهد العضلى الأكثر أو الأقل الذى يبذله ، من الكائن الحى الفاعل ولكن بسبب وعى الفاعل بجهده، وإمكانية برمجة الفعل وخلق المعدات واستعمالها للتوسط بينه وبين هدف نشاطه ووعيه بأن له أهدافاً ، والتنبؤ بالنتائج . . وأكثر من ذلك لكى يكون الفعل عملاً ، يجب أن تنتج عنه منتجات مهمة والتى إن تميزت عن الذات الفاعلة فهى فى نفس الوقت تكيفية وتصبح موضوع تفكير . . وكما يعمل الإنسان فى العالم بشكل فعال ، محولاً إياه بعمله ، يتكيف وعيه بدوره تاريخياً وثقافياً من خلال قلب الممارسة . . ووفقاً لتوعية هذا التكييف ، يحقق وعى الإنسان مستويات متعددة فى محيط الواقع الثقافى ـ التاريخى . . ونحن نتوى تحليل هذه المستويات من الوعى كخطوة أخرى باتجاه فهم عملية التوعية .

التكييف التاريخى ومستويات الوعى :

لكى نفهم مستويات الوعى ، لا بد لنا أن نفهم الواقع الثقافى التاريخى ، باعتباره بنية عليا على علاقة ببنية تحتية .. وبالتالى سنحاول أن نفهم ولو بشكل نسبى غير مطلق الخاصيات الأساس للشكل التاريخى - الثقافى الذى تماثله هذه المستويات ..

ليس الهدف محاولة دراسة مصادر الوعى وتطوره التاريخى ، بل أن نقدم تحليلاً تمهيدياً ملموساً لمستويات الوعى فى واقع أمريكا اللاتينية .. وهذا لا يبطل صلاحية مثل هذا التحليل لمناطق أخرى من العالم الثالث ، ولا لتلك المناطق من المدن المغتربة التى تربط هويتها بالعالم الثالث باعتبارها « مناطق صمت » .

سندرس أولاً ذلك الشكل التاريخى - الثقافى الذى أسميناه « ثقافة الصمت » .. وهذا الشكل الثقافى هو تعبير بنيوى قومى يكيف نوعاً خاصاً من الوعى .. وكما يبين (ألتوسر) ALTHUSSER ، تحدد ثقافة الصمت تضافرياً (للبنية التحتية التى تتأصل فيها) ..

ولا يمكن فهم ثقافة الصمت إلا إذا أخذت ككل فى مجموعها الكلى الذى يشكل فى حد ذاته جزءاً من كل أكبر .. وفى هذا الكل الأكبر يجب علينا أيضاً أن ندرك الثقافة أو الثقافات التى تحدد صوت « ثقافة الصمت » ونحن لا نعنى أن ثقافة الصمت كيان خلقته المدن الكبرى فى معامل متخصصة

ثم صدرته إلى العالم الثالث . . كما أنه من غير الصحيح ، على أى حال ، أن ثقافة الصمت تظهر بالتولد التلقائى . . ففى الواقع تولد ثقافة الصمت فى العلاقة بين العالم الثالث والمتقدم . ليس المسيطر هو الذى يبنى ثقافة ويفرضها على المسيطر عليه . . ذلك أن هذه الثقافة هى نتاج العلاقات البنيوية بين المسيطر عليهم والمسيطرين . . وهكذا فإن فهم ثقافة الصمت يفترض مسبقاً تحليل البنية كظاهرة علائقية تولد أشكالاً مختلفة من الوجود والتفكير والتعبير ، الخاصة « بثقافة الصمت » والخاصة بالثقافة التى لها صوت .

يجب علينا أن نتفادى كلا الموقفين الذين انتقدناهما سابقاً فى هذه المقالة : الموضوعية التى تؤدى إلى الميكانيكية ، والمثالية التى تؤدى إلى الأنانية (الإشرافية) وبالإضافة إلى ذلك لا بد لنا أن نحذر من إضفاء الصيغة المثالية على البنية الفوقية ، وبذلك نفصلها عن البنية التحتية ... وإذا ما قللنا من أهمية البنية الفوقية أو البنية التحتية ، فسيكون من المستحيل تفسير البناء الاجتماعى ذاته . . فالبناء الاجتماعى ليس شيئاً تجريدياً : فهو يوجد فى الجدل بين البنى الفوقية ـ التحتية . . وما لم نفهم هذا الجدل فلن نفهم جدلية التغيير والديمومة باعتبارهما تعبيراً عن البناء الاجتماعى . .

صحيح أن البنية التحتية ، التى تخلق فى العلاقات التى يحوّل بهما الإنسان العالم ، تفضى إلى البنية الفوقية . . ولكن

من الصواب أيضاً أن الأخيرة ، وقد توسطها الإنسان ، الذى يتشرب أساطيرها يتغلب على البنية التحتية ويحددها تضافرياً . . ولولا ديناميكية هذه العلاقات غير المستقرة التى يوجد فيها الإنسان ويعمل فى العالم ، لما أمكننا الحديث عن البناء الاجتماعى ولا على الإنسان ولا على عالم إنسانى . .

ولنعد إلى العلاقات بين المجتمع الحضرى والمجتمع التابع باعتبارهما مصدر سبل الوجود والتفكير والتغيير الخاص لكل منهما . . وبالرغم من أن كلاً من المجتمع الحضرى والمجتمع التابع كلمات فى حد ذاتها ، فهما جزء من كل أكبر وهو المحيط الاقتصادى والتاريخى ، والثقافى ، والسياسى الذى تنشأ فيه علاقاتهما المتبادلة . . وبالرغم من أن المحيط الذى ترتبط فيه هذه المجتمعات الواحد منها بالآخر ، فإن نوعية العلاقات تختلف بوضوح فى كل حالة ، إذ أنها محددة بالدور الذى يلعبه كل منهما فى المحيط الكلى لعلاقاتهما المتبادلة . . إن تأثير المجتمع الحضرى فى المجتمع التابع ذو طابع توجهى/إدارى فى حين يحمل فعل/ نشاط المجتمع الشىء التابع سواء أكان استجابة أو مبادرة ، طابع التبعية . .

تعكس العلاقات بين المسيطر والمسيطر عليهم المحيط الاجتماعى الأوسع ، حتى عندما تكون رسمياً شخصية . . إذ أن مثل هذه العلاقات تعنى ضمنياً تشرب المسيطر عليهم للأساطير الثقافية للمسيطرين . . وبالمثل يتشرب المجتمع التابع قيم وأسلوب حياة المجتمع المدنى حيث أن بنية هذا الأخير

تشكل بنية الأول .. وينجم عن ذلك ازدواجية المجتمع التابع ، وغموضه ووجوده دون أن يكون ذاته ، كذلك التكافؤ الضدى المميز بخبرته الطويلة فى التبعية ، فهو ينجذب إلى المجتمع الحضرى ويرفضه كذلك ..

كما أن إرادة المجتمع الموجه تشكل البنية التحتية للمجتمع التابع .. ومن ثم البنية الفوقية الناتجة تعكس عدم مصداقية البنية التحتية .. وفى حين تستطيع الحواجز أن تستوعب أزماتها الأيديولوجية عن طريق القوة الاقتصادية والتكنولوجيا المتطورة جداً ، نجد البنية التابعة أضعف من أن تتحمل أبسط تظاهرة شعبية .. وهذا يفسر الصرامة المألوفة فى البنية التابعة ..

والمجتمع التابع مجتمع صامت بحكم التعريف .. وصوته غير حقيقى ، بل أنه مجرد صدى لصوت الحاضرة إذ تتحدث الحاضرة بكل السبل ، بينما يصغى المجتمع التابع ..

إن صمت المجتمع التابع مقارنة بالمجتمع الموجه يتكرر فى علاقات المجتمع التابع نفسه .. فالصفوة السلطوية فى هذا المجتمع صامتة فى وجه الحاضرة وتعمل بدورها على إسكات شعوبها .. ولا يمكن لمثل هذا المجتمع التابع أن يبدد هذا الصمت تجاه المجتمع الموجه إلا عندما تبدد شعوب المجتمعات التابعة ثقافة الصمت هذه وتكسب حقها فى الكلام (التعبير) ـ أى عندما تحول التغييرات البنيوية الجذرية للمجتمع التابع ..

ومن ناحية أخرى إذا ما وصلت مجموعة ما إلى السلطة عن طريق انقلاب عسكري كما حدث فى **البيرو** مؤخراً، وبدأت فى اتخاذ إجراءات وطنية اقتصادية وثقافية وعسكرية فإن سياستها تخلق تناقضاً جديداً، تكون نتائجه إحدى النتائج التالية .. **أولاً،** قد يتجاوز النظام الجديد حتى نواياه هو ويضطر إلى الانفصال نهائياً عن ثقافة الصمت داخلياً وخارجياً .. وخشية من سطوة الجماهير ـ قد يتراجع ويفرض الصمت من جديد على الشعب .. **وثانياً،** قد ترعى الحكومة نوعاً جديداً من الشعبية، وانطلاقاً من الإجراءات الوطنية الأولية، قد تتوهم الجماهير المغمورة أنها تشارك فى تحويل مجتمعها، بينما فى واقع الأمر يتم التحكم فيها بذكاء .. ففى البيرو حيث تابعت المجموعة التى استولت على السلطة 1968 م أهدافها السياسية، أحدثت العديد من سلوكياتها شروخاً فى أكبر المناطق انغلاقاً فى مجتمع البيرو .. ومن خلال هذه الشروخ بدأت الجماهير فى الخروج من صمتها بمواقف أكثر صرامة .. وما أن تتم تلبية مطالب الجماهير حتى تجنح لا لتكرارها وحسب بل وإلى تغيير طبيعتها ..

وهكذا ينتهى التوجه الجماهيرى أيضاً إلى خلق تناقضات خطيرة للمجموعة السلطوية .. وستجد نفسها مضطرة إما لأن تفتح ثقافة الصمت عنوة أو إلى إحيائها .. ويبدو لنا أن هذا هو السبب الذى يجعل من لصعب على أية حكومة فى المرحلة التاريخية الحالية فى أمريكا اللاتينية أن تحتفظ حتى ولو نسبياً، بسياسة نضالية مستقلة تجاه ثقافة المدينة أو الحواضر فى الوقت الذى تحافظ فيه على ثقافة الصمت داخلياً ..

وفى عام **1961 م** وصل **جانيو كوادروس** إلى السلطة فى **البرازيل** فيما كان تقريباً أعظم انتصار انتخابى فى تاريخ الأمة . . وقد حاول أن ينفذ سياسة متناقضة قوامها الاستقلال عن الحواضر والسيطرة على الشعب . . وبعد سبعة أشهر من توليه السلطة أعلن فجأة للأمة أنه مضطر للتخلى عن الرئاسة بضغط من نفس القوى الخفية التى دفعت الرئيس **جيتوليو فاجرا** إلى الانتحار . . وهكذا غادر بكل أسف متوجهاً إلى لندن . .

لقد سلكت المجموعة العسكرية **البرازيلية** التى أطاحت بحكومة **جولارت عام 1964 م** ، والتى وصفت عملها بصورة رائعة على أنه ثورة ، سلكت مسلكاً مترابطاً منطقياً وفقاً لتحليلنا السابق سياسة عبودية ثابتة . . تجاه الحواضر وفرض الصمت بعنف على الشعب البرازيلى نفسه . . ولا يمكن أن تكون سياسة العبودية للحواضر وتفجير ثقافة الصمت الداخلية قابلتين للحياة . . وكذلك الأمر بالنسبة لسياسة الاستقلال عن الحواضر فى الوقت الذى تستمر فيه ثقافة الصمت فى الداخل . .

لقد تأسست المجتمعات الأمريكية اللاتينية كمجتمعات مغلقة منذ أن استعمرتها إسبانيا والبرتغال عندما بدأت ثقافة الصمت تتشكل . . وباستثناء كوبا ما بعد الثورة ما تزال هذه المجتمعات مغلقة حتى يومنا هذا . . إنها مجتمعات تابعة كل ما يتغير بالنسبة لها هو أقطاب صنع القرارات التى كانوا هم موضوعها . . . فى فترات تاريخية مختلفة . . البرتغال ، إسبانيا ، إنجلترا ، أو الولايات المتحدة . .

إن المجتمعات الأمريكية اللاتينية مجتمعات مغلقة يميزها نظام اجتماعى هرمى صارم ، تديره الأسواق الداخلية ، حيث أن اقتصادها مسير من الخارج ، تصدير المواد الخام والبضائع المصنعة ، دون أن يكون لها صوت فى أى من العمليتين ، ونظام تعليمى متقلب تشكل مدارسه وسيلة للمحافظة على الأوضاع القائمة ونسبة عالية من الأمية والمرض ، بما فى ذلك ما يسمى سذاجة بالأمراض الاستوائية والتى هى فى واقع الأمر أمراض التخلف والتبعية ، ونسب مخيفة من الوفيات بين الأطفال ، سوء التغذية ، والتى غالباً ما كان لها تأثير غير قابل للإصلاح على القدرات العقلية ، وانخفاض متوسط العمر المتوقع . . ونسبة عالية من الجريمة . .

كما أن هناك ضرباً من الوعى يقابل الواقع الملموس لمثل هذه المجتمعات التابعة . وهو وعى تاريخى تكيفه البنى الاجتماعية . . إن الخصوصية الأساسية لهذا الوعى ، التابع يتبعه المجتمع الذى يعمل وفقاً لبنيته ، فهى التزامه الظاهرى بالواقع . . وكما أوضحت فى كتابى **تعليم المقهورين** فالوعى المسيطر عليه لا يملك المسافة الكافية بينه وبين الواقع حتى يموضعها لكى يعرفها بكيفية نقدية . . ونحن نسمى هذا الضرب من الوعى شبه لازم (أنظر كتابى) .

والوعى اللازم نمطى بالبنى المغلقة . . وبسبب انغماس هذا الوعى الظاهرى فى الواقع الملموس يفشل فى إدراك العديد من تحديات الواقع ، أو يدركها بشكل مشوه . . أما عن لازميته الظاهرة فهى نوع من الطمس تفرضه الظروف

الموضوعية . . وبسبب هذا الطمس فالمعطيات الوحيدة التى يستوعبها الوعى المهيمن عليه هى تلك المعلومات التى تدور فى ذلك تجربته المعايشة . . ولا يمكن لهذا الضرب من الوعى أن يشىء وقائع ومواقف الحياة اليومية الإشكالية . . فالإنسان الذى يوجد وعيه فى هذا المستوى من الانعماس الظاهرى ، ينفذ إلى ما نسميه بالوعى البنيوى ، الذى يشكل نفسه ويعيد تشكيلها من الواقع الملموس فى إدراك الوقائع والمواقف الإشكالية . . نظراً لافتقار الإنسان للإدراك البنيوى ، يعزو مصادر مثل هذه الوقائع والمواقف فى حياته إما إلى واقع أعلى أو إلى شىء ما بداخله ، وفى كلتى الحالتين فهو يعزوها إلى أشياء خارجة عن الواقع الموضوعى . . وليس من الصعب أن نتلمس هنا مصدر المواقف الخبرية التى يتبناها الناس فى بعض المواقف فإذا كان تفسير مثل هذه المواقف يكمن فى قوة علوية أو فى عدم القدرة الطبيعية للإنسان ذاته ، فمن الواضح أن عمله لن يتجه نحو تحويل الواقع ، بل باتجاه الكائنات العلوية المسؤولة عن المواقف الإشكالية، أو باتجاه عدم القدرة المفترضة تلك . . وبالتالى فإن فعالياتهم تتسم بالسحر الدفاعى أو العلاجى . . وهكذا كان فلاحو أمريكا اللاتينية وفلاحو العالم الثالث بشكل عام يمارسون ، قبل موسم الزرع أو الحصاد ، نوعاً من الطقوس السحرية التى غالباً ما تكون ذات طبيعة دينية توفيقية . . وحتى عندما تتطور هذه الطقوس إلى تقاليد ثقافية ، فإنها تظل مؤثرة لفترة ما ، ذلك أن تحويل الطقوس السحرية إلى تعبير عن التقاليد لا يحدث فجأة ومرة أخرى فهو عملية تفترض ضمنياً الجدل بين الموضوعية والذاتية . .

وتحت تأثير التغيرات البنيوية التحتية التى أحدثت التصدعات الأولى فى المجتمعات الأمريكية اللاتينية ، دخلت هذه المجتمعات المرحلة الحالية من التحول التاريخى والثقافى - بعضها بشكل أكثر حدة من غيرها .. وفيما يخص البرازيل بالذات فقد بدأت هذه العملية بإلغاء الرق فى نهاية القرن التاسع عشر ، واشتدت خلال الحرب العالمية الأولى ثم مرة أخرى خلال كساد عام **1929** م .. واشتدت خلال الحرب العالمية الثانية ، واستمرت بشكل متقطع حتى **1964** م عندما أعاد الانقلاب العسكرى الأمة بالعنف إلى **ثقافة الصمت** ..

ومع ذلك فالمهم هو أنه ما إن تبدأ الشروخ تظهر فى البنية ، وما إن تدخل المجتمعات الفترة الانتقالية ، حتى تبدأ فوراً الحركات الأولى لظهور الجماهير التى ظلت حتى الآن مغمورة وصامتة وتبدأ فى إظهار نفسها .. وعلى كل فهذا لا يعنى أن الحركات باتجاه الظهور تبدد تلقائياً ثقافة الصمت .. ذلك أن المجتمعات الانتقالية تظل كليات صامتة فى علاقاتها مع الحواضر . ومع ذلك فمن داخل هذه المجتمعات ترغم ظاهرة الجماهير الصاعدة الصفوات السلطوية على تجريب أشكال جديدة للابقاء على صمت الجماهير ، حيث أن التغيرات البنيوية التى تحرك/ ظهور الجماهير تحدث فى نفس الوقت تغييراً كيفياً/نوعياً فى وعى الجماهير المغمورة ظاهرياً وشبه اللازم .

من المعطيات الموضوعية للمجتمع المغلق وأحد مكوناته البنيوية هو صمت الجماهير ، وهو صمت لا يكسره إلا الثورة أو

التمرد الفعال من حين إلى آخر . . وعندما يتزامن هذا الصمت مع إدراك الجماهير الجبرى للواقع ، قلما تشك الجماهير فى الصفوة السلطوية التى تفرض الصمت على الجماهير . . وعندما يبدأ المجتمع المغلق فى التصدع تصبح المعطيات الجديدة هى حضور الجماهير الملح . . وهكذا لا يصح من المعطيات غير القابلة للتغيير بل نتاج واقع يمكن بل يجب تحويله . . وهذه النقلة التاريخية التى تعيشها المجتمعات الأمريكية اللاتينية بدرجات أكثر أو أقل ، يقابلها مرحلة جديدة من الوعى الشعبى ، ألا وهى الانتقالية الساذجة . ففى السابق كان الوعى الشعبى شبه لازم ومحصوراً فى مجابهة التحديات ذات العلاقة بالحاجيات البيولوجية . . أما فى عملية الخروج من الصمت ، فإن قدرة الوعى الشعبى تتسع ليصبح الإنسان قادراً على رؤية وتمييز ما لم يكن محدداً من قبل . .

وبالرغم من أنه يمكن تفسير الفرق الكيفى بين الوعى شبه اللازم والوعى الانتقالى الساذج عن طريق ظاهرة البروز الناتجة عن التحولات البنيوية فى المجتمع ، فليست هناك حدود صارمة بين اللحظات التاريخية التى تنتج تغييرات كيفية فى وعى الإنسان . . وفى كثير من الجوانب يظل الوعى شبه اللازم حاضراً فى الوعى الانتقالى الساذج . . ففى أمريكا اللاتينية ، مثلاً تكاد تكون كل الجماهير الفلاحية ما تزال فى مرحلة الانغماس الظاهر وهى مرحلة ذات تاريخ أطول بكثير من مرحلة الظهور الحالية . . لقد غرس وعى الفلاحين شبه اللازم العديد من الميثولوجيات فى المرحلة السابقة وهى مستمرة

بالرغم من التغير فى إدراك الانتقالية . . . وعليه يبرز الوعى الانتقالى كوعى ساذج ومسيطر عليه كسابقه . . ومع ذلك فمما لا جدال فيه أن الوعى الآن أكثر قابلية لإدراك مصدر وجوده الغامض فى الظروف الموضوعية للمجتمع . .

إن ظهور الوعى الشعبى يقتضى ضمنياً التغلب على ثقافة الصمت أو على الأقل حضور الجماهير فى العملية التاريخية وممارستها الضغط على الصفوة السلطوية . . ولا يمكن أن يفهم إلا باعتباره أحد أبعاد ظاهرة أكثر تعقيداً . . وبعبارة أخرى فإن ظهور الوعى الشعبى ، بالرغم من كونه لازماً سذاجة ، يشكل أيضاً لحظة فى تطور وعى الصفوة السلطوية . . وفى البنية التى تتسم بالتسلط لا يمكن أن يوجد صمت الجماهير لولا الصفوة السلطوية التى تعمل على إسكاتها ولم تكن هناك صفوة سلطوية لولا الجماهير . . وكما أن هناك لحظة مفاجئة بين الجماهير عندما تبدأ ترى ما لم تره من قبل ، هناك مفاجأة مماثلة بين الصفوة التى فى السلطة عندما تجد أن الجماهير قد كشفتها . . ويثير هذا الكشف الثنائى القلق فى كل من الجماهير والصفوة السلطوية . . وهكذا تصبح الجماهير متعطشة للحرية، متلهفة للقضاء على الصمت الذى طالما وجدت فيه . . وتتوق السلطوية للإبقاء على الوضع القائم وذلك بالسماح بتحولات سطحية فقط تستهدف الحيلولة دون أى تغير حقيقى فى سلطاتهم فى التقرير .

وفى العملية الانتقالية تستلم شخصية «**المجتمع المغلق**»

التى يتغلب عليها الجمود تدريجياً للدينامية فى كل أبعاد الحياة الاجتماعية . . وتطفو التناقضات على السطح مثيرة الصراعات التى يـزداد فيهـا إلحـاح الـوعى الشعبى مسبباً المـزيـد من القلق لـدى الصفوة . . ومـا أن تتمدد خـطوط هذا الانتقـال التاريخى بشكل أدق مسلطة الضوء على التناقضات الكامنة فى المجتمع التابع حتى تسعى مجموعات المثقفين والطلبة والذين ينتمون إلى الصفوة ذات الامتيـازات لأن تصبح منهمكـة فى الـواقع الاجتمـاعى ، إلى رفض البرامـج المستوردة والحلول الجاهزة . . وهكذا بالتدريج لا تعود الفنون مجـرد تعبير عن الحياة السهلة للبرجوازية المـرفهة ، وتجـد وحيها فى الحيـاة الصعبة للجماهير . . ويبدأ الشعراء فى الحديث عن الأيـدى الفلاحة والعمال لا باعتبارها مفـاهيم مجردة وميتـافيزيقيـة بل باعتبار هؤلاء بشراً ملموسين وذوى حياة ملموسة .

فى حالة البرازيل لقد دفعت هذه التغيرات النوعية كل مستويات الحياة الإبداعية . . وما أن اشتدت مرحلة الانتقـال حتى ركزت هذه المجموعات النشطة أكثر فأكثر على واقعها القومى لكى تعرفه بشكل أفضل ولتخلق سبل التغلب على حالة التبعية التى كان يعيشها مجتمعها . .

ولأن الأنماط السياسية القديمة للمجتمع المغلق لم تعد كافية حيث تشكل الجماهيـر حضوراً تـاريخياً متنـامياً ، كـان للمرحلة الانتقاليـة أيضاً أن تـولد أسلوبـاً جديـداً فى الحياة السياسية . . ففى المجتمع المغلق يتوسط القـادة السياسيـون

الذى يمثلون الزمرات الصفوية المختلفة العلاقات بين الصفوة والجماهير المغمورة ظاهرياً .. **ففى البرازيل** نجد القادة السياسيين ذوى النزعة الأبوية الثابتة لا يملكون أراضيهم وحسب بل كذلك الجماهير الشعبية الصامتة والخائفة التى تقع تحت سيطرتهم .. ولما كانت الصحوة الجماهيرية التى أحدثتها الشروخ فى المجتمع لم تمس المناطق الريفية فى أمريكا اللاتينية فقد ظلت هذه المناطق فى الغالب تحت سيطرة القادة السياسيين ... وبالمقابل ففى المراكز الحضرية - المدنية برز نوع من القيادة للتوسط بين الصفوة السلطوية والجماهير الصاعدة القيادة الشعبية وهناك ميزة واحدة للقيادة الشعبية تستحق اهتمامنا الخاص - إنى أشير إلى طبيعتها التحكمية .

وبالرغم من أن خروج الجماهير من الصمت لا يسمح للأسلوب السياسى للمجتمع المغلق سابقاً بالاستمرار ، فإن ذلك لا يعنى أن الجماهير قادرة على الحديث نيابة عن نفسها .. إنها لم تزد عن مجرد أنها انتقلت من مرحلة الانغماس الظاهرى إلى حالة الإدراك الانتقالى الساذج .. وبالتالى يمكن القول بأن القيادة الشعبية استجابة كافية للحضور الجديد للجماهير فى العملية التاريخية .. ولكنها قيادة تلاعبية ، تتلاعب بالجماهير نظراً لأنها لا تستطيع أن تتلاعب بالصفوة ..

يجب النظر إلى التحكم الشعبى من منظورين مختلفين : فهو من ناحية بلا شك نوع من المخدر السياسى الذى لا يحافظ على سذاجة الوعى الصاعد/ المتنامى وحسب ، بل

وكذلك على تعود الشعب على أن يوجه ومن ناحية أخرى ، وإلى الحد الذى يستخدم فيه المراوغة الشعبية مطالب واحتجاجات الجماهير ، فمن التناقض الظاهرى أن المراوغة السياسية تسرع بالعملية التى تنيط بها الجماهير اللثام عن الواقع . . ويلخص هذا التناقض الظاهرى الطبيعة الغامضة للشعبية فهى مراوغة ولكنها فى نفس الوقت عامل من عوامل التعبئة الديمقراطية . .

وهكذا لا يقتصر نظام الحياة السياسية الجديد الذى نجده فى المجتمعات الانتقالية على الدور المراوغ لقياداته التى تتوسط بين الجماهير والصفوة . . حقاً أن الأسلوب الشعبى فى العمل السياسى ينتهى بخلق ظروف تمكن المجموعات الشبابية والمثقفين من ممارسة المشاركة السياسية مع الجماهير . . وبالرغم من أن ذلك شاهد بين شواهد الأبوية التحكمية ، فإن الشعبية توفر إمكانية التحليل النقدى للتحكم ذاته . . ومن خلال كل التفاعل بين التناقضات والغموض نجد أن ظهور الجماهير الشعبية فى المجتمعات الانتقالية يمهد الطريق أمام الجماهير لتصبح واعية بحالتها التابعة . .

وكما قلنا فإن انتقال الجماهير من حالة الوعى شبه اللازم إلى حالة الوعى الانتقالى الساذج أيضاً لحظة الوعى لدى الصفوة ، وهى لحظة حاسمة بالنسبة للوعى النقدى للمجموعات التقدمية . . وفى البداية يظهر وعى هش بين مجموعات صغيرة من المثقفين ممن لا يزالون مطبوعين بالغربة الثقافية للمجتمع ككل ، وهى غربة يدعمها تكوينهم الجامعى . . وما إن تظهر التناقضات النموذجية فى المجتمع الذى يمر بمرحلة الانتقال

بشكل أوضح حتى تتضاعف هذه المجموعات وتصبح قادرة على التمييز بشكل أدق بين مكونات مجتمعها .. ويجنح أكثر فأكثر إلى الانضمام إلى الجماهير الشعبية بطرق شتى عن طريق الإدراك ، والفنون التشكيلية ، والمسرح ، والموسيقى ، والتربية ، والرياضة، والفن الشعبى .. على أن الأمر الأهم هو الصلة الوثيقة بالجماهير التى تستطيع بعض هذه الجماعات أن تحققها ..

وفى هذه المرحلة فإن الوعى النقدى المتنامى لهذه المجموعات النقدية، والذى يصدر عن الانتقالية الساذجة للجماهير الصاعدة يصبح تحدياً لوعى الصفوة السلطوية .. إن المجتمعات التى تجد نفسها فى هذه المرحلة التاريخية التى لا يمكن فهمها خارج إطار الاستيعاب النقدى للكل الذى يشكل جزء منه ، يعيشون فى مناخ ما قبل الثورة والذى يشكل الانقلاب نقيضه الجدلى ..

لقد أصبحت الانقلابات فى أمريكا اللاتينية الصفوة السلطوية الاقتصادية والعسكرية على أزمات التململ الشعبى وتختلف هذه الاستجابة حسب التأثير النسبى للعسكريتارية .. ووفقاً لدرجة عنفه وقمع الشعب الذى يتبع ذلك ، ويحيى الانقلاب من جديد الأنماط القديمة للسلوك بين الناس ، وهى أنماط تنتمى إلى حالة الانغماس الظاهرى السابقة لديهم .. وهذا الإحياء من جديد لثقافة الصمت وحده الذى يفسر سلبية الجماهير عندما تواجه عنف وحكم الانقلابات العسكرية الأمريكية اللاتينية التعسفى .

ولا بد من التأكيد على أنه لا يمكن فهم الانقلابات العسكرية فى أمريكا اللاتينية دون رؤية جدلية للواقع ، وأية محاولة لفهم هذه الانقلابات بطريقة آلية محضة ستؤدى إلى صورة مشوهة . . **فالمجتمعات الأمريكية اللاتينية** فى مرحلة الانتقالية بمشاكلها الكثيفة وظروف التبعية التى تكشفها يومياً ، تواجه احتمالين متناقضين : الثورة أو الانقلاب العسكرى . . وكلما ازدادت قوة الأسس الأيديولوجية للانقلاب ، كلما زادت استحالة إمكانية عودة المجتمع فيما بعد إلى نفس الأسلوب السياسى الذى خلق ذات الظروف التى أدت إلى الانقلاب . . فالانقلاب العسكرى يغير كيفية عملية الانتقال التاريخى للمجتمع ، ويحدد بداية مرحلة انتقالية جديدة . . ففى المرحلة الانتقالية الأصلية ، يكون الانقلاب ويؤكد باعتباره قوة تعسفية مضادة للسلطة الشعبية ينجح باتجاه المزيد من الصلابة قبل الاستمرار فى إمكانية حدوث الثورة . .

ففى **البرازيل** تقدم الفترة الانتقالية التى تميزت بالانقلاب خلاصة الأيديولوجية التنموية التى تقوم على تسليم الاقتصاد الوطنى للمصالح الأجنبية ، وهى أيديولوجية تستبدل على حد قول **كاردوسو** فكرة المشاريع الدولية الكبيرة بفكرة احتكار الدولة كأساس للتنمية . . إن إحدى المتطلبات الأساسية لمثل هذه الأيديولوجية هى بالضرورة إسكات القطاعات الشعبية وبالتالى إبعادها عن مجال اتخاذ القرار . . وعليه فإن على القوى الشعبية أن تتجنب الوهم الساذج الذى يذهب إلى أن هذه المرحلة الانتقالية **قد** توفر مداخل تمكن الجماهير من إعادة تأسيس

وتيرة المرحلة الانتقالية السابقة ، والتى يماثل نموذجها السياسى الأيديولوجية الشعبية فى التنمية . .

إن المداخل التى تقدمها المرحلة الانتقالية الجديدة لها معانيها الخاصة . . ذلك أن مثل هذه المداخل لا تعنى العودة إلى ما كان كائناً بل مسألة أخذ وعطاء ضمن تفاعل التكيفات التى تتطلبها الأيديولوجية السائدة . . وأياً كانت أيديولوجيتها ، فالمرحلة الانتقالية الجديدة تتحدى القوى الشعبية لأن تجد طريقة جيدة تماماً للتقدم متميزة عن نشاطها فى الفترة السابقة عندما كانت تصارع القوى التى جاءت بها تلك الانقلابات إلى السلطة .

إن أحد أسباب التغير واضح بما فيه الكفاية . . إذ بسبب القمع الذى يفرضه الانقلاب، على القوى الشعبية أن تعمل فى صمت ، والعمل الصمت يتطلب دراية صعبة بالإضافة إلى ذلك ، فإن على القوى الشعبية أن تبحث عن طريق تواجه بها تأثيرات تنشيط ثقافة الصمت من جديد ، التى ولدت تاريخياً الوعى المسيطر عليه .

وتحت هذه الظروف ، ما هى إمكانية البقاء للوعى المتصاعد والذى وصل مرحلة الانتقال الساذج ؟ على هذا السؤال لا بد أن توجد فى تحليل أعمق للمرحلة الانتقالية التى شنها الانقلاب العسكرى . ولما كانت الثورة ما تزال ممكنة فى هذه المرحلة ، سيتركز تحليلنا على المواجهة الجدلية بين المشروع الثورى والنظام الجديد . .

العمل الثقافى والثورة الثقافية :

ليس من الضرورى أن تنبىء المجموعات الثورية بأنها النقيض المعادى لليمين . . وعلى أى حال فلن يكون من غير المناسب أن تؤكد أن هذا العداء الذى يتولد من أهدافها المتنافرة ، لا بد وأن يعبر عن نفسه من خلال سلوك معاد هو الآخر . . يجب أن يكون هناك اختلافاً فى ممارسات كل من اليمين والمجموعات الثورية الأمر الذى يحددهما ، بما يجعل اختيارات كل مجموعة واضحة . . ويتضح الفرق بين هاتين المجموعتين من طبيعة المجموعات الثورية واستحالة أن يكون اليمين ثورياً . . وهذا التمييز ليس تعسفياً ، بل إنه غير كاف للتمييز بشكل جذرى بين أهداف وأشكال العمل التى تنتهجها المجموعات الثورية والمجموعات اليمينية . .

وإلى الحد الذى تعنى فيه الثورية الحقيقية إدانة ورفض الواقع الظالم والإعلان عن مشروع مسبق **فالقيادة الثورية لا تستطيع بدون الجماهير:**

1 ـ أن تدين الواقع دون أن تعرف الواقع .

2 ـ الإعلان عن واقع جديد دون أن يكون لديها مشروع مقترح والذى بالرغم من ظهوره أثناء الإدانة ، لا يصبح مشروعاً قابلاً للحياة إلا فى الممارسة .

3 ـ معرفة الواقع دون الاعتماد على الشعب وكذلك على الحقائق الموضوعية كمصدر لمعرفته . .

4 ـ أن يدين ويعلن بنفسه . .

5 ـ أن يخلق أساطير جديدة من خلال الإدانة والتبشير ، يجب أن تكون الإدانة والتبشير لا أيديولوجياً بالقدر الذى تنبع فيه من المعرفة العلمية لواقع . .

6 ـ التخلى عن تبادل الآراء مع الشعب ليس خلال فترة الجدل بين الإدانة والتبشير . وتجسيد مشروع قابل للحياة وحسب ، بل كذلك أثناء عملية إعطاء المشروع واقعاً ملموساً فى حذ ذاته .

وهكذا تقع القيادة الثورية فى تناقضات داخلية تعرض أهدافها للشبهة عندما تقع ضحية المفهوم القدرى للتاريخ ، فتحاول أن تروض الشعب آلياً باتجاه مستقبل تعرفه القيادة قبلياً والذى تعتقد أن الشعب غير قادر على معرفته . . وفى مثل هذه الحالة تفقد القيادة الثورية طوباويتها وتنتهى بالارتباط باليمين . . فاليمين لا يرفض ولا يبشر بشىء كما قلنا اللهم إلا إدانة أو رفض من يرفضه أو يدينه والإعلان عن أساطيره الخاصة به . .

ومن ناحية أخرى فالمشروع الثورى الحقيقى هو عملية يتولى الشعب فيها دور الفاعل فى مغامرة تحويل العالم وإعادة خلقه المحفوفة بالمخاطر والمجازفات . . وبالطبع سيعارض اليمين بالضرورة مثل هذا المشروع ، وسيحاول أن يجمده . . وهكذا كما يقول **أريك فروم** فالثورية نزاعة إلى الحياة فى حين أن اليمين بحكم جموده نزاع إلى الموت .

وتنجح الثورية لأن تكون ديناميكية أكثر منها جـامدة ، تجنـح إلى الحياة بـدلاً من الموت، وتتـطلع إلى المستقبـل باعتباره تحدياً لإبداعات الإنسان بدلا من كونه تكراراً للحاضر ، وتنـزع إلى الحب بـاعتبـاره تحـريـراً للذوات وليس تملكـاً بـاثولـوجيا ، وتحن إلى عـاطفة الحيـاة بدلاً من التجـريدات الباردة ، إلى الحياة جماعة بدلاً من الحياة القطيعية إلى الحوار بدلاً من الصمت ، إلى الممارسة عوضاً عن القانون والنظام ، يتجه الإنسان الذى ينظم نفسه بتأمل من أجل الفعل بدلاً من الإنسان ينظم ليكون سلبياً إلى اللغة المبدعـة والتوصيليـة لا الإشـارات التقريـرية ، إلى التحـديات التـأملية لا الشعـارات المؤنسة ثم إلى القيم المعاشة لا الأساطير المفروضة .

إن اليمين بحكم صـلابته يفضـل الميت على الحى ، والجمود على الديناميكية ، والمستقبل باعتباره تكراراً للماضى وليس مغامرة خلاقة ، وأشكال الحب الباثولوجى بدلاً من الحب الحقيقى ، والتخطيط التافة والبارد بـدلاً من عاطفـة الحياة ، والحياة القطيعية بدلاً من الحياة الحقيقية مع بعض ، إنسان المؤسسات بدلاً من الإنسان الذى ينظم ، والأساطير المفروضة بدلاً من القيم المجسدة ، والتوجهات بدلاً من اللغة الإبداعية والتواصلية ، والشعارات بدلاً من التحديات . .

من الضرورى جداً بالنسبة للثوريين أن يقفوا أكثر فأكثر على الفرق الجوهرى الذى يفصلهم عن الصفوة اليمينية . . إذ لا يكفى أن نـدين عنف اليمين ، ومـوقفـه الأرستقـراطى

وأساطيره ، بل على الثوريين أن يبرهنوا على احترامهم للجماهير، وإيمانهم وثقتهم بها، لا باعتبارهم ذلك استراتيجية بل باعتباره مطلباً تقتضيه الثورية . . وهذا الالتزام بالجماهير يعد جوهرياً فى كل وقت .

وكما قلنا فبالتضحية بالجماهير عن طريق العنف ، يفرض الانقلاب من جديد مناخ « ثقافة الصمت » القديم . . فالجماهير وهى تقف على عتبات تجربتها كذوات فاعلة فى المجتمع ومشاركة فيه . تحتاج إلى إشارات تدلها على التعرف عمن يقفون معها ومن يقفون ضدها . . وتقدم هذه الإشارات ، أو الشواهد عن طريق مشاريع يقترحها أناس من خلال جدليتهم مع البيئة . . ويشكل كل مشروع كلاً متفاعلاً من الأهداف ، والطرق ، والإجراءات ، والتكنيك . ولا يتميز المشروع الثورى عن نظيره اليمينى بأهدافه وحسب ، بل بواقعه الكلى . . إذ لا يمكن فصل طريقة المشروع عن محتواه وأهدافه ،كما لو كانت الوسائل محايدة ومناسبة بنفس الكيفية للتحرر والسيطرة . . ذلك أن مثل هذا المفهوم يعكس مثالية ساذجة تكتفى بالنوايا الذاتية للفرد الذى يعمل . .

إن المشروع الثورى ينشغل بالنضال ضد البنى القمعية التى تسلب الإنسان الملموس باعتباره إنساناً يحرر نفسه ، فإن أى تنازل عفوى/غير مقصود لصالح وسائل المضطهدين يشكل خطراً وتهديداً دائمين للمشروع الثورى ذاته . . ولا بد للثوريين من أن يطالبوا أنفسهم بتماسك صارم . . وباعتبار الثوريين بشراً

قد يقترفون أخطاء ، وهم عرضة للمواربة ، ولكن لا يمكن أن يتصرفوا كالرجعيين ثم يسموا أنفسهم ثوريين . . يجب أن يكيفوا نشاطاتهم للظروف التاريخية ، وذلك باستثمار الإمكانات الحقيقية والفريدة المتوفرة . . دور الثوريين هو البحث عن أكفأ السبل وأكثرها قابلية للحياة لمساعدة الجماهير على الانتقال من مرحلة الوعى شبه الجامد أو مرحلة الوعى الانتقالى . . الساذج إلى مرحلة الوعى الفاعل . . هذا الاستغراق المحرر وحده متضمن فى المشروع الثورى نفسه . . ولما كان المشروع الثورى مناضلاً فى ممارسات الثوريين ، فقد كان كل مشروع ثورى عملاً ثقافياً ، بالأساس فى طريقه لأن يصبح « ثورة ثقافية » .

الثورة عملية نقدية لا يمكن تحقيقها بدون العلم والتأمل . . وخلال العمل المتأمل فى العالم المراد تحويله ، تدرك الجماهير أن العالم فعلاً يتعرض لعملية تحول . . ويعتبر العالم أثناء التحول وسيطاً للحوار بين الجماهير من جانب فى عملية المعرفة والقيادة والثوريين فى الطرف الآخر . . وإذا لم تسمح الظروف الموضوعية دائماً بمثل هذا الحوار ، فيمكن التحقق من وجودها بشهادة الثوريين أنفسهم .

لقد كان **جيفارا** شاهداً لا ينقطع عن الحوار الذى يوفره الثوريون مع الشعب . . . وكلما درسنا أعماله كلما أدركنا قناعاته بأن كل من أراد أن يكون ثورياً حقيقياً فلا بد أن يكون على اتصال وثيق بالجماهير ولم يتردد **جيفارا** يوماً فى إدراك أن القدرة على الحب شرط لا غنى عنه للثوريين الحقيقيين . .

وفى الوقت الذى كان يشير فيه باستمرار إلى فشل الفلاحين فى المشاركة فى الحركة الثورية ، إلا أن إشاراته إليهم فى يومياته **البوليفية** لا تعبر عن كرهه لهم . ولم يفقد الأمل فى أنه بالنهاية يمكن الاعتماد على مشاركتهم . . وبنفس روح التواصل كانت معسكرات الفدائيين **الجيفاريين** بمثابة الإطار النظرى الذى مكنه وزملاؤه من تحليل الأحداث الملموسة التى كانوا يعيشونها ومكنهم من تخطيط استراتيجية عملهم . .

لم يخلق **جيفارا** أية انقسامات بين الوسائل ، والمحتوى والأهداف ومشاريعه . . وبالرغم من المخاطرة بحياته وحياة زملائه ، فقد كان يبرر حرب العصابات باعتبارها مقدمة للحرية ، كدعوة بالنسبة للأموات الأحياء . . لقد أصبح **جيفارا** فدائياً مثل **كلاميللو توريس** لا بسبب اليأس المفضى إلى التهور ، ولكنه كعاشق للجماهير ، كان يحلم بإنسان يولد من جديد فى تجربة التحرر . . وبهذا المعنى ، فقد كان أحد الرسل العظام إلى الصامتين فى العالم الثالث .

وباستشهادنا **بجيفارا** وشهادته كفدائى ، فإننا لا نقصد إلى القول بأن على كل الثوريين فى مناطق أخرى من العالم أن يكرروا نفس الشاهد . . فالشىء الضرورى هو أن يسعوا حقيقياً إلى تحقيق الاتصال مع الجماهير كما فعل **جيفارا** ، فالاتصال بالجماهير والذى لا يتفسر إلا لأولئك الذين يملكون رؤية ثورية بالمعنى المشار إليه فى هذا المقال ـ هو أحد الخصوصيات الجوهرية للعمل الثقافى من أجل الحرية . . ذلك أن الاتصال الحق يقتضى ضمنياً التواصل بين الناس وقد توسطهم

العالم . . والممارسة فى إطار التواصل هى وحدها التى تجعل التوعية مشروعاً قابلاً للحياة . . وتعتبر التوعية مشروعاً مشتركاً من حيث أنها تحدث للإنسان من بين النـاس ، وهم أناس يوحدهم علمهم وتأملهم لذلك العلم وكذلك للعالم . . وهكذا يحقق الناس مجتمعون حالة الوضوح المدرك والمميز الـذى يسميه **جولامان** أقصى حد من الوعى الممكن يتجاوز « الوعى الواقعى » .

التوعية أكثر من مجرد الإحساس بالوعى . وفى الوقت الذى تقتضى فيه التوعية ضمنياً التغلب على الوعى الزائف أى التغلب على حالة الوعى شبه اللازم أو الانتقالى الساذج فإنه يقتضى ضمنيـاً كذلـك الإقحام النقـدى للشخص الذى تمت توعيته فى واقعٍ مجرد من الأسـاطير . . ولهـذا السبب كانت التوعية برنامجاً لا يمكن تحقيقه بـالنسبة لليمين . . فـاليمين بحكم طبيعته غير قادر على أن يكون ثورياً ومن ثم لا يستطيع أن يطور شكلاً من العمل الثقافى من شأنه أن يحقق التوعية .

ليس بـالإمكان تـوعية الجمـاهير دون الإدانـة والـرفض الجذريين لكل البنى التى تسلب الإنسـان آدميته ، ودون أن يصاحب ذلك الإعلان عن واقع جديد تخلقـه الجماهيـر . . فاليمين لا يستطيع أن يكشف عن نفسه كما لا يمكنه أن يرعى السبل التى تتيح للجماهير أن تكشفه بقدر ما لا يرغب فى أن يكشف . . وبازدياد وضوح الوعى الجمـاهيرى ، يـزداد وعى اليمين ، ولو أن هذا الشكل من التوعية لا يمكنه أن يتحول بنفسه إلى ممارسة تميل إلى توعية الجماهير . . إذ لا يمكن أن

تكون هناك توعية دون رفض البنى الظالمة ، وهو أمر لا يمكن أن تتوقعه من اليمين . . كما لا يمكن أن تكون هناك توعية جماهيرية من أجل التسلط . . فاليمين يخترع أشكالاً جديدة من العمل الثقافى بهدف التسلط وحسب .

وهكذا نجد أن هذين الشكلين من الثقافة متنافرين وحيث يتميز العمل الثقافى من أجل الحرية بالحوار ، وحيث أن أهم أهدافه هو توعية الجماهير نحو مواقع متقدمة كان العمل الثقافى من أجل التسلط يعارض الحوار ويعمل على ترويض الجماهير . . فالأول يطرح المشاكل فى الوقت الذى يطرح فيه الثانى الشعارات . . ولما كان العمل الثقافى من أجل الحرية ملتزماً بإناطة اللثام عن الواقع ، أى يفضح الخرافات والأيديولوجيات الحكومية فلا بد أن يفصل الأيديولوجيات عن العلم . . ويصر الأستاذ Althusser فى كتابه Paraleer El Capital على ضرورة هذا الفصل . . فالعمل الثقافى من أجل الحرية لا يمكن أن يكتفى بما يسميه بغموض الأيديولوجيا ولا أن يقبل بالإدانة الأخلاقية البسيطة للأساطير والأخطاء بل يجب أن يأخذ على عاتقه النقد العقلانى والدقيق جداً للأيديولوجيا السلطوية .

إن الدور الأساسى للملتزمين بالعمل الثقافى من أجل التوعية ليس صنع الفكرة المحررة بالمعنى الضيق للكلمة ، بل دعوة الجماهير لإدراك حقيقة واقعها الصامت والمستعبد من طرف الحكام بعقلها وحده . .

وتمشياً مع هذه الروح فى المعرفة ، لا يمكن أن تكون

المعرفة العلمية تلك المعرفة التى لا تتعدى النقل ، ذلك أنها ستصبح فى حد ذاتها أسطورة أيديولوجية ، حتى لو نقلت بهدف تحرير الإنسان . . يمكن حسم التناقض بين البنية والممارسة لصالح الممارسة . . ذلك أن نقاط الانطلاق الحقيقية الوحيدة فى المعرفة العلمية للواقع هى العلاقات الجدلية بين الإنسان والألم ، والفهم النقدى لكيفية نشوء وتطور هذه العلاقات وكيف تكيف هذه العلاقات بدورها إدراك الإنسان للواقع الملموس . .

إن الذين يستخدمون العمل الثقافى كاستراتيجية لاستمرار تسلطهم على الجماهير لا خيار لديهم غير تلقين الجماهير بنسخة أسطورية غامضة عن الواقع . . وبذلك يُخضع اليمين العلم والتكنولوجيا لأيديولوجيته الخاصة ويستخدمها لنشر المعلومات والقوانين فى محاولة لتكييف الجماهير للواقع الذى تعرفه وسائل الاتصال على أنه مناسب وبالمقابل فالعلم بالنسبة للذين يأخذون على عاتقهم العمل الثقافى من أجل الحرية ، يعتبر الوسيلة التى لا غنى عنها لإدانة الخرافات التى يخلقها اليمين ، والفلسفة هى منبت الإعلان عن الواقع الجديد . . ويوفر العلم والفلسفة معاً أسس العمل من أجل التوعية . . والعمل الثقافى من أجل التوعية دائماً مشروعاً ثورياً وهذا هو السبب فى أنه يحتاج إلى الفلسفة ، والتى بدونها ، بدلاً من إدانة الواقع والإعلان عن المستقبل يقع فى غموض المعرفة الأيديولوجية .

إن الطبيعة الثورية للعمل الثقافى من أجل الحرية هى ما

يميزها ، فوق كل شيء ، عن العمل الثقافى من أجل الهيمنة .. فالعمل الثقافى من أجل الهيمنة القائم على الأساطير ، لا يستطيع أن يطرح المشاكل المتعلقة بالواقع أمام الجماهير ، ولا أن يوجهها نحو الكشف عن الواقع ، حيث أن كلاً من هذين المشروعين يقتضى ضمنياً الإدانة والإعلان .. وعلى العكس ، فعند مشكلة وتوعية العمل الثقافى من أجل الحرية ، يكون الإعلان عن واقع جديد وسيعد المشروع التاريخى الجديد المقترح ليحققه الإنسان ..

وفى مواجهة حالة الوعى شبه اللازم أو الساذج بين الجماهير ، نتصور التوعية وتشمل تحقيق الوعى النقدى أو الحد الأقصى من الوعى الممكن ولا يمكن لهذا الهدف أن ينتهى عندما يصبح الإعلان ملموساً .. على العكس عندما يصبح الإعلان واقعاً ملموساً ، تزداد الحاجة إلى الوعى النقدى بين الجماهير ، أفقياً وعمودياً .. وهكذا فالعمل الثقافى من أجل الحرية ، والذى يميز الحركة التى ناضلت من أجل ما تم الإعلان عنه ، يجب عندئذٍ أن تحول نفسها إلى ثورة ثقافية مستمرة ..

وقبل المضى قدماً للخوض بشكل موسع فى لحظات العمل الثقافى والثورة الثقافية المتمايزة والمترابطة بالضرورة ، دعونا نلخص ملاحظاتنا السابقة فيما يتعلق بمستويات الوعى .. لقد تم تأسيس علاقة واضحة بين العمل الثقافى من أجل الحرية ، والتوعية باعتبارها مشروعها الأساسى ، وتجاوز الوعى

النقدى للوعى شبه اللازم وحالة الوعى الساذج ـ الانتقالى . . ولا يتحقق الوعى النقدى عن طريق الجهد الفكرى وحده ، بل عن طريق الممارسة ، عن طريق الاتحاد الحقيقى بين العمل والتأمل . . ذلك أنه لا يمكن أن ننكر على الجماهير مثل هذا العمل التأملى . . ولو كان ذلك ممكناً ، لأصبحت الجماهير مجرد مخالب فعالة فى أيدى جماعة تحتفظ لنفسها بحق صنع القرار . . ولا يمكن لليسار الحقيقى إلا أن يحث على التغلب على الوعى المزيف لدى الجماهير على كافة المستويات التى يوجد عليها ، تماماً كما أن اليمين عاجز على أن يفعل ذلك . . ولكى يحافظ اليمين على سلطته ، يحتاج إلى صفوة تفكر له وتساعده فى تحقيق مشاريعه . . أما الجماعة الثورية فإنها تحتاج إلى الجماهير لتحول المشروع الثورى إلى واقع ولكنها الجماهير التى تزداد وعليها النقد أكثر فأكثر . .

وبعد أن يدشن الواقع الثورى ، تظل التوعية أمر لا غنى عنه . . فهى أداة لتبديد الأساطير الثقافية التى تحتفظ بها الجماهير رغم الواقع الجديد ، وبالإضافة إلى ذلك فالتوعية قوة رادعة للبيروقراطية التى تهدد بإخفات الرؤية الثورية والهيمنة على الجماهير بإسم حريتها ذاتها . وأخيراً تشكل التوعية دفاعاً ضد تهديد آخر ، ألا و هو إمكانية أسطرة التكنولوجيا التى يتطلبها المجتمع الجديد لتحويل بناه التحتية المتخلفة (أنظر كتابنا تعليم المقهورين) .

هناك اتجاهان ممكنان أمام الوعى الجماهيرى الانتقالى . .

أما الأول فهو التطور من حالة الوعى الساذج إلى مستوى الوعى النقدى ـ أى ما يسميه **جولدمان** « الحد الأقصى من الوعى الممكن » وهو الوعى الثورى من أجل الحرية .

أما الثانى فهو تشويه حالة الوعى الانتقالى إلى شكلها الباثولوجى (المرضى) أى مرحلة الوعى المتطرف أو اللاعقلانى كما يصفها **ماريال بريكال** فى كتابه « الإنسان ضد المجتمع ـ الجماهير » وهو الوعى الذى تفرضه الصفوة المتسلطة من أجل تكريس ثقافة الصمت .

وتنشأة الجمهرة ـ أى ظاهرة المجتمعات الجماهيرية ـ فى الاتجاه الأول للوعى وهو الوعى الإيجابى الذى يرتبط ذهنياً بالمجتمع الجماهيرى وصعود الجماهير فى العالمية التاريخية بمزاعمها ومطالبها مما يجعلها حاضرة فى العملية التاريخية مهما كان وعيها ناقصاً ـ وهى ظاهرة تصاحب تصدع المجتمعات المغلقة تحت تأثير التغيرات الأولية فى البنية التحتية للمجتمع . . وعلى كل فالمجتمع الجماهيرى يحدث فى مرحلة تالية للوعى . . ويظهر فى المجتمعات البسيطة والمعقدة والمتطورة تكنولوجياً ولكى تؤدى هذه المجتمعات وظيفتها جماهيرياً ، تتطلب خاصيات تصبح تخصصات . . وباعتبار الخاصيات متميزة عن التخصصات ، نجد أن التخصصات تضيق نطاق المعرفة بكينية تجعل ما يسمى بالاختصاصيين يصبحون عموماً عاجزين عن التفكير . . ولأنهم فقدوا الرؤية للكل الذى لا يشكل خصوصيتهم ، سوى بعد واحد فقط منه

فإنهم يعجزون حتى عن التفكير السليم فى مجالات تخصصهم .

بذلك تصبح طرق التفكير فى المجتمعات الجماهيرية حرة تماماً كطرق اللباس والذوق فى الأكل . . ويبدأ الإنسان فى التفكير والتصرف وفقاً لوعى الحرية التى اكتسبها عن طريق عملية الوعى الثورى من أجل الحرية والاستجابة للعلاقات الجدلية مع العالم .

وفى المجتمعات الجماهيرية حيث كل شىء خلق عن طريق الوعى الثورى يكون السلوك إنسانياً محضاً ، ويجد الإنسان سبيله لأنه أصبح حراً ، وفى علاقة دائمة مع العالم - الإنسان .

وهكذا يتحرر الإنسان فى إدراك التكنولوجيا باعتبارها من أعظم التغييرات فى قدراته الإبداعية ، وتصبح فى ذلك نوعاً من القدسية الجديدة التى تخلق طائفة من الحريات من حولها ، وتصبح الكفاءة مرتبطة بقدرة الإنسان على التفكير والإبداع ولا تصبح تعنى تنفيذ الأوامر العلوية تحديداً وبدقة . .

وبدلك يكون واضحاً أن التطور التكنولوجى أحد اهتمامات المشروع الثورى وقد يكون من التبسيط بمكان أن نعزو مسؤولية نجاح المشروع الثورى إلى التكنولوجيا ذاتها . . إذ سيكون ذلك نوعاً آخر من العقلانية ألا وهو النظر إلى التكنولوجيا على أنها كيان خيّر فى خدمة الإنسان ويقف معه . . وإذا نظرنا إلى التكنولوجيا نظرة نقدية نجد أنها ليست أكثر أو أقل من أنها

مرحلة طبيعية للعملية الإبداعية التى شغلت الإنسان منذ اللحظة التى صنع فيها أولى معداته وبدأ بتحويل العالم بهدف جعله أكثر إنسانية . .

وبالنظر إلى التكنولوجيا باعتبارها ليست ضرورية فحسب ، بل هى جزء من التطور الطبيعى للإنسان ، فإن السؤال الذى يواجه الثوريين هو كيف يتجنبون انحرافات التكنولوجيا الأسطورية؟؟ . . تقنيات الإنسان ليست الجواب ، ذلك أنها فى نمط من أنماط التحليل النهائى طريقة أخرى لترويض وتغريب الإنسان من أجل المزيد من الإنتاجية ، ولهذا السبب ، وغيره من الأسباب التى شرحناها ـ بسطناها خلال هذا المقال ، فإننا نصر على العمل الثقافى من أجل الحرية . . وعلى كل فإننا لا نعزو للتوعية قوة سحرية ليس من شأنها إلا أن نجعلها أسطورية . . فالتوعية ليست شيئاً سحرياً بالنسبة للثوريين ، بل هى بعد أساسي من عملهم التأملى . . ولو لم يكن للإنسان قوى واعية قادراً على الفعل والإدراك ، وقادراً على المعرفة والإبداع من جديد ، لو لم يكن واعياً بنفسه وبالعالم، لما كان لفكرة «التوعية» أى معنى . . إن الثورات الحقيقة تقوم لكى تحرر الإنسان وتحديداً لأن الإنسان يستطيع أن يعرف أنه مضطهد ، وأن يعى الواقع المستبد الذى يوجد فيه . .

ولما كان وعى الإنسان يتكيف بالواقع أحياناً ، كما رأينا ، كانت التوعية بالدرجة الأولى مجهوداً من أجل تنوير الإنسان حول العقبات التى تمنعه من إدراك الواقع . . وفى هذا الدور

تحقق التوعية تبديد الأساطير الثقافية التى تشوش وتربك وعى الجماهير وتجعلها كائنات غامضة .

ولما كان الإنسان كائناً تاريخياً ، غير كامل وواع بأنه غير كامل ، كانت الثورة بعداً إنسانياً طبيعياً ودائماً كالتربية تماماً . . ولا يذهب أحد إلى أن العملية التربوية تتوقف عند نقطة معينة ، أو أن الثورة يمكنها أن تتوقف عندما تصل إلى السلطة ، إلا ذوى العقلية الآلية المحضة . . ولكى تكون الثورة أصيلة فلا بد أن تكون حدثاً مستمراً . . وإلا توقفت عن أن تكون ثورة وتحولت إلى بيروقراطية متصلبة .

الثورة دائماً ثقافية ، سواء أكانت فى مرحلة إدانة ورفض المجتمع الاستبدادى والإعلان عن ظهور مجتمع عادل ، أم كانت فى مرحلة المجتمع الجديد الذى أنشأته الثورة . . ففى المجتمع الجديد ، تصبح العملية الثورية ثورة ثقافية . .

وأخيراً فلنوضح الأسباب التى دفعتنا إلى الحديث عن العمل الثقافى والثورة الثقافية باعتبارهما لحظتين متميزتين فى العملية الثورية . . ففى المقام الأول ، نجد أن العمل الثقافى من أجل الحرية يتم لمعارضة الصفوة السلطوية المسيطرة ، بينما تحدث الثورة الثقافية بانسجام مع النظام الثورى - ولو أن هذا لا يعنى أنها تابع للسلطة الثورية . . فالثورة الثقافية الشاملة تطرح الحرية كهدف لها . . وبالعكس فالعمل الثقافى إذا ما رعاه نظام مستبد يمكن أن يكون استراتيجية التسلط ، وفى هذه الحالة لا يمكن أبداً أن يصبح ثورة ثقافية . .

ويحدد الواقع الاستبدادى ذاته والصمت الذى تفرضه الصفوة السلطوية حدود الفعل الثقافى .. ذلك أن طبيعة الاستبداد ، تحدد التكنيكات والتى تختلف بالضرورة عن المستخدمة فى الثورة الثقافية .. وفى حين يواجه العمل الثقافى من أجل الحرية الصمت باعتباره حقيقة خارجية ، وباعتباره واقعاً مغروساً تواجهه الثورة الثقافية باعتباره مجرد واقع مغروس.. ويشكل كل من العمل الثقافى والثورة الثقافية مجهوداً من أجل رفض وتدمير الثقافة المسيطرة ، ثقافياً ، حتى قبل أن تصبح الثقافة الجديدة الناجمة عن هذا الرفض والتدمير واقعاً .. وحتى الواقع الثقافى الجديد ذاته باستمرار عرضة للرفض لصالح تأكيد الإنسان المتزايد .. وعلى أى حال ففى الثورة الثقافية يحدث هنا الرفض مع ولادة ثقافة جديدة فى رحم الثقافة القديمة ..

ويقضى كل من العمل الثقافى والثورة الثقافية ضمناً التفاعل والتواصل بين الثوريين والجماهير ، باعتبارهما ذوات فاعلة تحول الواقع .. وعلى كل ففى الثورة الثقافية يكون التفاعل والتواصل راسخاً وثابتاً لدرجة أن الثوريين والجماهير يصبحان كالجسد الواحد تضبطه عملية النقد الذاتى المستمرة .. ويقوم كل من العمل الثقافى والثورة الثقافية على المعرفة العملية للواقع ، ولكن فى الثورة الثقافية لا يعود العلم فى خدمة التسلط .. وفى نقطتين اثنتين ليس هناك تميز بين الثورة الثقافية والعمل الثقافى .. فكلاهما ملتزمان بالتوعية وتفسر صورة كلا منهما بجدلية « التحديد التضافرى » .

لقد تحدثنا عن التحدى الذى تواجهه أمريكا اللاتينية فى هذه المرحلة من التحول التاريخى .. ولا نعتقد أن مناطق أخرى من العالم الثالث تشكل استثناء لما وصفناه ، ولو أن لكل منهما فروقهما الدقيقة الخاصة .. وإذا كانت السبل التى يتبعونها تؤدى إلى التحرر ، فلا نستطيع أن نتجنب العمل الثقافى من أجل التوعية ولا يمكن للجماهير الصاعدة والغير نقدية أن تحقق الحد الأقصى من الوعى الممكن ولا أن تحقق الانتقال من الانغماس فى شبه الانتقالية إلى الصعود الكامل إلا من خلال مثل هذه العملية وإذا كنا نؤمن بالإنسان ، فلا يمكن أن نكتفى بالقول بأنه بشر دون أن نفعل شيئاً ملموساً يمكنه من أن يوجد كإنسان .



الهوامش

المقدمة

1 ـ تعانى هذه المجتمعات الموجهة ـ المديرة بدورها عادة ، وكما هو طبيعى ، من مرض معاكس : فهى مقتنعة بأن فكرها معصوم من الخطأ ، ولهذا السبب فمن الطبيعى أن تحذو المجتمعات التابعة حذوها بورع وعندما نقول هذا فنحن إنما نؤكد حقيقة واضحة ففى العلاقة بين المدن الكبرى والمجتمعات التابعة ، تقابل غربة المجتمعات التابعة السلوك المتعالى للأول ، أى المجتمع الموجه (وهذا يعنى ضمناً ما يسر به **GUERRIERO RAMOS** بالقدوة) .

وعلى كل حال ، ففى أى الحالتين ، يجب أن يقلع المرء عن إطلاق هذا الحكم ، ذلك أنه كما أن هناك من بين المغتربين من يفكر بشكل غير مغترب ، هناك أناس غير متكبرين أو متعالين فى المجتمعات الكبيرة الموجهة وفى كلتى الحالتين، لأسباب مختلفة، يشيرون على معايير كل منهما . .

2 ـ تحدث عملية التحول هذه بطريقتها الخاصة فى المجتمعات السيدة مما يعطى مظهراً بالاستقرار الذى لا يتزعزع . . وهناك أيضاً ترى ظهور أكثر القطاعات الشعبية كآبة . . والتى لم توجد من قبل على هيئة مشاكل ، مختبئة كما كانت فى ترف مجتمعها . . وعندما تصعد هذه الجماعات تؤكد حضورها عن طريق البنى السلطوية ، سواء بتنظيم نفسها لتشهد على حضورها الذى لا مفر منه فى العملية التاريخية ، أو بواسطة أكثر أشكال الضغط السياسى عدوانية . .

وبالتدرج تشارك المجموعات الطلابية والتى ركزت لفترة طويلة على المطالب الأكاديمية المجردة ، فى تململ المجموعات المضطهدة . . ويحدث نفس الشيء للتقدميين الأكثر تقدمية من بين المثقفين . . وهكذا فخطط المجتمعات الموجهة كلها موضع تساؤل . .

صحيح أنه عند الحديث على عملية التغيير الاجتماعى فى هذه المجتمعات على المرء أن يأخذ فى اعتباره قدرتها الأوسع على استيعاب المعارضة وذلك بفضل تقدمها التكنولوجى المتطور . . وقد لفت **ماركوس MARCUSE** الانتباه مراراً إلى أن هذه القوة التكنولوجية قادرة على تحويل العديد من حركات الاحتجاج هذه إلى مجرد تظاهرات فولكلورية وعلى كل، فهذه النقطة ليست جزءاً من موضوعنا . . ولا يمكن معالجتها بشكل كاف فى هامش بسيط . .

3 ـ فيما يتعلق « بثقافة الصمت » أنظر مقالنا « الحرية الثقافية فى أمريكا اللاتينية » .

4 ـ حتى التحليل المتعجل والسطحى للسياسة فى أمريكا اللاتينية يؤكد هذا التوكيد . . ومع ذلك يجب ألا ينظر إلى الانقلابات المتعاقبة على أنها دليل على عدم قدرة شعوب أمريكا اللاتينية على السيطرة على مقدراتها . . على العكس ، فالانقلابات ، والعنف الذى يحاول به

قادتها الإبقاء على أنفسهم فى السلطة هى رد فعل الأوليجاركيات ، التى تسيطر عليها المدن الكبرى تجاه ضغط الجماهير التى تحاول أن تكون جماهيراً . .

الفصل الأول

1 ـ يعترف المؤلف شاكراً LORETTA SOLVER التى قامت بمساهمتها بترجمة هـذا المقال ، وكـذلك JOAO DE VEIGA COUTIMHO و ROBERT RIORDAN اللذين ساعدا فى إعداد المخطوط . .

2 ـ فى اللغات البرتغالية والإسبانية تتركب الكلمات من مقاطعها . . وهكذا فإن كل كلمة ذات مقطع واحد هى من الناحية الفنية توليدية بمعنى أنه يمكن تركيب كلمات أخرى من مقاطعها المفككة وعلى كل حال ، فقد تكون كل كلمة توليدية بحق ، يجب أن تتوفر بعض الشروط التى سنناقشها فى جزء لاحق من هـذه المقـالـة . . (على المستـوى الفونولوجى لا تنطبق عبارة كلمة توليديـة بالضبط إلا فيمـا يختص بالمنهج القرائى ذى التوجه نحو المقاطع الصـوتية ، بينمـا التطبيق الموضوعى عام . . أنظر SYLVIA ASLITION WERNER فى كتابها TEACHER حيث تعالج فكرة الكلمات التوليدية على المستوى الموضوعى بشكل مختلف.

3 ـ يطرح المفهوم الهضمى للمعـرفة « بـالقراءات المـوجهة » بـالفصول الدراسية تقتصر على المحاضرات ، باستعمال الحوارات المستظهرة فى تعليم اللغة ، والملاحظات البيليوغرافية التى تشير إلى الفصول الواجب قراءاتها وحسب بل كذلك إلى أى الأسطر والكلمات وبطرق تقييم الطالب فى التعليم . .

4 ـ من بين هذه الكتب الابتدائية هناك استثناءان جديران بالذكر .

1 ـ فى **البرازيل** طور فريق من أخصائى حركة التعليم الأساسى كتاب VIVER A LUTAR والذى رعاه ومولـه مؤتمـر الأسـاقفـة القومى . . (وقد وضع هذا الكتاب موضع خلاف فى الرأى بعد أن منع CARLOS LACEDRA حاكم GUNABRA عام 1963 م تداولـه باعتباره تخريباً) .

2 ـ فى **التشيلى** مجموعة ESPIGA بالرغم من بعض القصور البسيطة وقد نظمتها DE PLANES EXTRDINARIOSA DE EDUCACION DE ADULROS JAFALURA .

5 ـ لما لم تكن هذه الكتب الابتدائية فى متناول الكاتب وقت كتابة هذا المقال ، وكان من ثم عرضة لتسجيل العبارات بشكل غير دقيق والخلط بين مؤلفى هذه الكتب، فقد رأى من الأفضل عدم تحديد أسماء المؤلفين أو عناوين الكتب . .

6 ـ لن يكون للعبارة الإنجليزية أى معنى هنا ، كما هو الأمر بالنسبة للبرتغالية ، حيث أن الأمر يتعلق بالتأكيد على الحرف الصامت(D) .

7 ـ ربما أضاف المؤلف هنا « . . وفيما لو حدث هذا ، استعمل قليلاً من الميركوركروم» .

8 ـ الكلمة البرتغالية المترجمة إلى الإنجليزية على أنها الرجل الهامشى هى MARGINAL MAN MARGINADO ولهذا معنى سلبياً : أى الذى جعل على الهامش أو أبعد خارج المجتمع ، إضافة إلى معنى حالة وجود حافة المجتمع . .

(المترجم)

9 ـ كما يقول سارتر « هناك طريقتان للوقوع فى المثالية : تتكون الأولى

من تحليل الواقع REAL فى الذاتية ، وتتكون الثانية من نكران أى ذاتية لصالح الموضوعية « من كتاب البحث عن منبع SEARCH FOR » « METHOD .

10 ـ تشير عبارة الرمز/ التفسير أما إلى التصوير، أو الصورة نفسها لجانب مهم من الواقع الملموس للمتعلم (مثلاً الحياة فى الأكواخ) . . وهكذا تصبح هدفاً للحوار بين المدرس ـ الطالب والإطار لتقديم الكلمة التوليدية . .

11 ـ تشير عبارة فك الرموز DECODIFICTION إلى عملية الوصف والتفسير سواء فى مجال الكلمات المقروءة/ المطبوعة، أو الصور أو أى ترميزات CODIFICATIONS أخرى . . ومن هذا المنطلق كانت عبارتى DECODING DECODIFICATION تختلفان عن عملية DECODING التفكيك أو التعرف على علكلمات WORD-RECOGNITION .

12 ـ فيما يتعلق بالوعى المضطهد أو المقهور أنظر كتاب **فرانس فانون** «**معذبو الأرض**» ، وكتاب **البرت ميمى** «**المستعمرون والمستعمرون**» وكتابى «**بيداغوجية المضطهدين**» . . .

13 ـ لاحظنا فى البرازيل بل وأمريكا الناطقة بالإسبانية ، وخاصة التشيلى ، أنه لم تكن هناك حاجة لأكثر من سبع عشرة كلمة لتعليم الكبار قراءة وكتابة اللغات المقاطعية كالبرتغالية والإسبانية . .

14 ـ بشأن البعد الطوباوى للإدانة والإعلان، أنظر كتاب A MARXIST HUMAMISN LESZEK KOLAKOESK : TOWARD نحو الإنسانية الماركسية .

15 ـ لا يحتاج اليمين باعتباره قوة محافظة إلى طوباوية ، ذلك أن جوهر اليمين هو ترسيخ الظروف القائمة بالفعل ـ حقيقة طوباوية ـ أو الرغبة

فى العودة إلى حالة كانت ذات حقيقة واقعة . . يسعى اليمين إلى إضفاء المثالية على الظروف الفعلية ، لا أن يغيرها فما يحتاج إليه هو التزيف لا الطوباوية ، كلاكوسكى KALAKOWSKI.

16 ـ « لقد لاحظنا بأن دراسة الجانب الإبداعى لاستعمال اللغة ينمى الافتراض بأن العمليات اللغوية والذهنية تكاد تكون متطابقة ، توفر اللغة الوسائل الأولية للترسيع الحر للفكر والإحساس وكذلك من أجل أن يؤدى الخيال المبدع وظيفته » .

17 ـ بعد إعادة توزيع الأراضى فى الإصلاح الزراعى التشيلى ، أصبح الأجراء من الفلاحين الذين كانوا يعملون بالأبعاديات الكبيرة أصبحوا مستوطنين خلال فترة ثلاث سنوات حيث يتلقون مساعدات من الحكومة عن طريق مؤسسة الإصلاح الزراعى . . تسبق فترة المستوطنات فترة تخصيص الأراضى للفلاحين . . وتتعرض هذه السياسة للتغير الآن . . حيث يتم إلغاء مرحلة استيطان الأراضى لصالح التوزيع المباشر للأراضى على الفلاحين . . ومع ذلك فستستمر مؤسسة الإصلاح الزراعى فى مساعدة الفلاحين . .

18 ـ يشير DARIO SALES هنا إلى واحد من أفضل برامج تعليم الكبار التى تنظمها مؤسسة الإصلاح الزراعى فى تشيلى بالتعاون الوثيق مع وزارة التعليم (ومعهد لإصلاح الزراعى والتدريب والأبحاث . .) يتلقى خمسون فلاحاً منحاً للدراسة والإقامة لمدة شهر . . وتتركز الكورسات على مناقشة الأوضاع المحلية والإقليمية والوطنية . .

19 ـ لا يدخل تحليل أهداف ومناهج البحث فى الموضوعات التوليدية فى مجال هذه المقالة ، ولكن تمت معالجته فى كتابنا **تعليم المقهورين**.

الفصل الثانى

1 ـ هذا هو القسم الثالث من مقال **باولو فريرى** « التوعية : عمل ثقافى من أجل الحرية»، وقد ظهر القسمان الأولان فى مجلة **هارفارد** للدراسات التربوية عدد مايو 1970 م . . HARVARD EDUCATIONAL REVIEW وقد ترجمته LORETTA SLOVER . . 1970 م حقوق النشر لصالح « مركز دراسات التنمية والتغير الاجتماعى » ، 1430 نهج ماساتشوستس ، كمبردج ، ما ساتشوستس 2138 . .

2 ـ تشير التوعية إلى العملية التى يحقق بها الإنسان كذات عارفة وليس كمتلق واع متنام من الواقع الاجتماعى ـ الثقافى الذى يشكل حياته ومقدراته على تحويل ذلك الواقع . . أنظر القسم الأول . .

(المحرر)

3 ـ بشأن التمييز بين علاقات الإنسان واتصالات الحيوان ، أنظر **باولو فريرى** EDUCACAO COMO PRATICA DA LIBERADE .

4 ـ يعنى السمو فى هذا الإطار قدرة الوعى الإنسانى على تجاوز حدود الصفوة الموضوعية . . وبدون هذه العهدية السامية يكون الوعى بما هو موجود فيما وراء الحدود مستحيلاً . . مثلاً أنا أعى كيف أن المنضدة التى أكتب عليها تحدنى لمجرد أنى أستطيع أن أتجاوز وأن أركز انتباهى على حدودها .

5 ـ « الإنسان ، حيوان عاقل » أرسطو . .
ولنقل اليوم أكثر تحديداً « الإنسان حيوان مفكر/متأمل » ، مؤكدين على الخصائص التطورية لخاصية تدل على الانتقال من وعى ما زال قائماً إلى وعى مركز على الكفاية ليكون قادراً على التزامن مع

ذاته . . فالإنسان ليس « كائناً يعرف بل كائن يعرف أنه يعرف فإذا امتلكنا وعياً يرقى إلى القوة2 » . . فهل ندرك بما فيه الكفاية الطبيعة الجوهرية للفرق ؟ . . عن كتاب PIERRE TEILHARD ظهور الإنسان THE APPEARANCE OF MAN .

6 ـ يرفض **ماركس** تحويل الوقع بنفسه فى إحدى أطروحاته حول **فويرباخ** THESE ON FEURBACH أنظر **كارل ماركس** « أعمال مختارة فى الاجتماع والفلسفة الاجتماعية » . .

7 ـ فى نقاش لعلاقات الإنسان/ العالم خلال إحدى « الحلقات الثقافية » أكد فلاح تشيلى « الآن أستطيع أن أرى أنه ليس هناك عالم بدون الإنسان » . . وعندما سأل المربى ، لنفترض أن كل الناس ماتوا ، ولكن ظلت هناك أشجار . وحيوانات ، وطيور ، وأنهار ، ونجوم ، ألن يكون هذا هو العالم ؟ » . . أجاب الفلاح « لا » ، فلن يكون هنا أحد ليقول ، هذا هو العالم » .

8 ـ نشير هنا إلى السلوكية كما درسها JOHN BELOFF فى كتابه « وجود العقل » THE EXISTENCE OF MIND .

9 ـ يقول ORTEGA Y GASSET فى أحد أعماله أن « النمر لا ينفى التنمرة DE FIGERIZE عن نفسه » . .

10 ـ هذا مناسب لعلاقات الإنسان الاجتماعية، والتى تقضى ضمنياً علاقاتها مع العالم . . وهذا هو السبب فى أن الفصل التقليدى بين العمل اليدوى والعمل الفكرى ليس إلا أسطورة . . فكل عمل يستدعى حضور كل الإنسان كوحدة لا تقبل التجزئة . . فعمل الصانع اليدوى فى المصنع لا يمكن أن يقسم إلى عمل يدوى وفكرى تماماً مثل عملنا عندما نكتب مقالة . . والتمييز الوحيد الذى يمكن أن يقوم به بين هذين الشكلين من العمل هو سيطرة نوع الجهد الذى يتطلب العمل: جهد عضلى ـ عصبى أم فكرى . . فيما يتعلق بهذه النقطة

أنـظر ANTONIO GRAMSCE «الثقـافـة والأدب» CULTURA Y LITERACE.

11 ـ من خطاب JOSE FOIRI مساعدا للمؤلف ضمن فريق التشيلى فى معهد الإصلاح الزراعى والتدريب والأبحاث ICIRA وهو من أفضل المعاهد من نوعه فى العالم الثالث . .

12 ـ من المجتمع أن تلاحظ كيف يحدث هذا مع الكنائس . . ففكرة « الأراضى التبشيـريـة » تنبـع أصـلاً من الـولايـات الأم فـى المستعمرات . . إذ لكى توجد أراضى تبشيريـة ، يجب أن يكون هناك آخر بعددها على أنها كذلك . . وهنا تزامن وتوافق بين الأمم التى تبعث بالمبشرين (التبشيرية) والولايات الأم فى المستعمرات كما هو موجود بين الأراضى التبشيرية والعالم الثالث . . ويبدو لنا على العكس ، أن كل الأراضى تشكل أراضى تبشيرية من المنظور المسيحى . .

13 ـ بشـأن «المجتمعات المغلقـة» أنـظر HENRI BERGSON مصـدرى الأخـلاق والـدين THE TWO SOURCES OF MORALITY AND RELIGION وكتاب KOR POPPER المجتمع المفتوح وأعداؤه . .

14 ـ لا نزال نجد هنا النوع/الضرب MODE من الوعى سائداً فى المناطق الريفية . . بأمريكا اللاتينية حيث امتلاك الأبعـاديات الـواسعة هو القاعدة . . وتشكـل المناطق الـريفية « مجتمعـات مغلقة » تحتفظ « بثقافة الصمت » دون أى مساس بها . .

15 ـ من الضرورى تبدد تحديث البنى المغلقة مصادر الطقوس السحرية التى تشكل جزءاً لا يتجزأ من البنى . . فإن لم نفعل ، ففى الوقت الذى يمكن أن يتخلص التحديث من ظاهرة الطقوس السحرية فى حد ذاتها فسيمضى التحديث لإضفاء الأساطير على التكنولوجيا . .

وستحل أسطورة التكنولوجيا محل الكيانات السحرية التى كانت فى السابق تفسر المواقف المعقدة وعلاوة على ذلك قد ينظر إلى أسطورة التكنولوجيا ، لا باعتبارها بديلاً عن القوى القديمة ، والتى تظل موجودة فى هذه الحالة ، ولكن باعتباره شيئاً يفوقها حتى هى ذاتها . . وهكذا تطرح التكنولوجيا على أنها القوة تفوق البنى ، ولا يمكن أن تصل إليها إلا حفنة قليلة متميزة . .

16 ـ لقد سبب إلغاء الرق فى البرازيل انتكاس رأس المال فى الصناعات الأولية وحفز الموجات لأولى من الهجرة الألمانية ، والإيطالية ، واليابانية إلى الولايات الوسطى الجنوبية والجنوبية فى البرازيل.

17 ـ بالرغم من أننا لم نقم بدراسة دقيقة لظهور الوعى الأسود فى الولايات المتحدة ، فمن المغرى أن نقول بأن هناك اختلافات بين الأجيال الشابة والقديمة وخاصة فى المناطق الجنوبية ، والتى لا يمكن تفسيرها بالمعايير السيكولوجية ، بل بالفهم الجدلى لعملية الوعى الصاعد فالجيل الشاب أقل تأثراً بالقدرية من الجيل القديم ، ومنطقياً يجب أن يتخذ مواقف تختلف كيفياً عن تلك التى يتخذها الجيل القديم ، ليس فيما يتعلق بالصمت السلبى ، ولكن بالنسبة للطرق التى تستخدمها حركاتهم الاحتجاجية . .

18 ـ أنظر الدراسة الممتازة عن **«دور الشعر فى الثورة الموزمبيقية»** مجلة إفريقيا اليوم AFRICA TODAY .

19 ـ فى أمريكا اللاتينية تمكنت الثورة المكسيكية ، البوليفية والكوبية من فتح بنى المجتمعات المغلقة فى المناطق الريفية . . ولكن كوبا وحدها التى استطاعت أن تجعل هذا التغير دائماً . . أما المكسيك فقد أحبطت ثورتها، وهزمت الحركة الثورية البوليفية . . ومع ذلك فإن وجود الفلاحين فى الحياة الاجتماعية فى كل من المكسيك وبوليفيا حقيقة غير قابلة للشك كنتيجة لتلك البداية الأولية . .

20 ـ يشير FRA. NCISCO WEFFORT فى مقدمته لكتابنا التربية كممارسة للتحرر EDUCOCAO COMO PRATICA DA LIBERDADE إلى أن الغموض الذى هو السمة الرئيسية للشعبية وباعتبار الأستاذ WEFEORT أستاذاً لعلم الاجتماع فهو من أفضل محللى الشعبية فى البرازيل اليوم . . وقد نشر مركز دراسات التنمية والتغير الاجتماعى ، كمبردج ، ماساتشوستس ، مؤخراً ترجمة لمقدمته وقد أنجزتها LORETTA SOLVER للتداول المحدود . .

21 ـ يستخدم ALTHUSESR نفس ظاهرة لجوء الجماهير إلى الصمت ، ليفسر كيف كان فى إمكان الشعب الروسى أن يتحمل جرائم القمع الستالينى .

22 ـ فيما يتعلق **بالراديكالية**، ونقيضها ، الطائفية ، أنظر كتابنا **تعليم المقهورين**.

23 ـ بشأن النزوع إلى الحياة والنزوع إلى الموت أنظر كتاب **أريك فروم** ERICH FROMM «**قلب الإنسان**» THE GEART OF MAN .

24 ـ ناقشت هذين الشكلين من العمل الثقافى فى كتابى **تعليم المقهورين**.

25 ـ لا بد لنا أن نرفض الأسطورة التى تذهب إلى أن أى نقد للبيروقراطيات النزاعة إلى الموت الذى يبتلع الإعلان الثورى يقوى اليمين . . فالعكس صحيح . . فالصمت وليس النقد فى هذه الحالة هو الذى يرفض الإعلان (الثورى) ويشكل تنازلاً لليمين . .

26 ـ فى محادثة أخيرة معى لأخصائى التحليل النفسى مساعد الدكتور FROMM قال لى أن أبحاث توحى بعلاقة بين إضفاء الأساطير حول التكنولوجيا والاتجاهات التيكروقبلية (الميل إلى الموت) . .

27 - « إن المهنيين الذين يسعون لتحقيق ذواتهم عن طريق السلوك الإبداعى والمستقبل دون مراعاة للأهداف المحددة والاحتياجات والقنوات بكل جهة من جهاتهم لا مكان لهم فى المؤسسات الكبيرة أو الوكالات الحكومية كما هو الأمر بالنسبة للجنود الذين يعانون من الغثيان فى الجيش . . فالتنظيم الاجتماعى للتكنولوجيا الجديدة ، بنكرانه المنظم على عامة الشعب التجارب التى تشابه تجارب إداراته العليا ، يساهم بشكل كبير فى نمو اللاعقلانية الاجتماعية فى مجتمعنا». عن JOHN MACDERMOTT .

28 - بالرغم من أنه يمكن تطبيق هذه الأحكام حول الثورة الثقافية على تحليل للثورة الثقافية فى الصين وسواها ، فليس هذا فى نيتنا ، فنحن نقصر دراستنا على مجمل العلاقة بين الثورة الثقافية ، والعمل الثقافى الذى نقترحه . .

ملحق

فى هذا الملحق كيف يتم تفكيك كلمة توليـدية من لغـة مقاطعية، وكيفية تكوين كلمات جديدة منها . .

● الكلمة التوليدية GENERATIVE WORD .

يتم اختيار كلمة ذات ثلاثة مقاطع من « العالم اللغوى » خلال البحث الذى يسبق دورة محو الأمية . . مثلاً (FAVELA SLUM) وتعنى حى فقير . .

● الترميز CODIFICATION.

تصوير جانب مهم من الموقف الوجودى الإنسـانى فى حى الأكواخ . . ويتم إدخال الكلمة التوليدية فى هذا الترميز . . ويؤدى الترميز وظيفة الموضوع القابل للمعرفة KNOWABLE

OBJECT الذى يتوسط الذوات العارفة KNOWING SUBJECT المربى والمتعلمين - فى عملية المعرفة التى يحققونها فى الحوار .

● المجال الحقيقى أو الملموس REAL OR CON-CRETE CONTEXT

واقع الحى الفقير كإطار للوقائع الموضوعية التى تهم ساكنى الأكواخ SLUMS مباشرة . . .

● المجال النظرى THE ORITCAL CONTEXT

حلقة نقاش (حلقة ثقافية CERCULO DE CULTORA) حيث ينشغل المربون والمتعلمون - عن طريق ترميز واقع الأكواخ الموضوعى - فى حوار حول أسباب REASONS واقع الأكواخ . . وكلما كانت عملية المعرفة أعمق كشف المتعلمون الواقع على حقيقته ، مستبعدين الأساطير التى تحيط به . . وتمكن هذه العملية المعرفية المتعلمين من تحويل تفسيرهم للواقع من مجرد رأى إلى معرفة أكثر نقدية . .

وهكذا ، باعتبارها لبيئة النظرية ، فحلقة النقاش هى البيئة المتخصصة حيث تطرح الحقائق التى نجدها فى البيئة الملموسة ، فى الأكواخ ، للتحليل النقدى .

إن الترميز الذى يصور هذه الوقائع ، هو الموضوع القابل للمعرفة KNOWABLE OBJECT إن فرز الرموز DECODI-FICATION أى تفكيك BREAKGDOWN الكل المرمز ثم

إعادة تجميعه (أى إعادته كلاً) ، هو العملية التى تسعى بها الذوات العارفة KNOWING SUBJECT إلى المعرفة ولا غنى عن العلاقة الحوارية فى هذه العملية . .

● مراحل فرز الرموز STAGES OF DECODIFICATIC

1 ـ تبدأ الذوات العارفة فى عملية تفكيك الكل المرمز . . وهذا يمكنهم من التوغل PERETVDS فى الكل من حيث العلاقات بين أجزائه ، والتى حتى ذلك الحين لم يدركها المشاهدون . .

2 ـ وبعد التحليل الشامل للموقف الوجودى للأكواخ ، تتأسس العلاقة الدلالية بين الكلمة التوليدية ومدلولها . .

3 ـ وبعد أن ترى الكلمة فى الموقف ، يتم عرض شريحة SLIDE أخرى حيث تظهر الكلمات فقط ، دون صورة الموقف FAVELA .

4 ـ تفصل الكلمة التوليدية فوراً إلى مقاطعها FA VE LA .

5 ـ تعرض أسرة FAMILY المقطع الأول , FA , FE , FI , FO FU وعندما يواجه الطلاب هذه الأسرة المقاطعية ، يتعرف الطلبة على المقطع فقط ، والذين يعرفونه من الكلمة التوليدية . . ما هى الخطوة التالية بالنسبة للمربى الذى يؤمن بأن تعلم القراءة والكتابة هى عملية معرفية (والذى يعرف أيضاً أن هذا ليس، كما هو الحال لدى أفلاطون، عملية تذكر ما كان قد نسى)؟ . . وهو يدرك أن عليه أن

يزود الطلبة بمعلومات جديدة.. ولكنه يعرف أيضاً أن عليه أن يقدم المادة لهم على أنها مشكلة.. وهكذا يطرح سؤالين:

أ - هل لهذه القطع PIECES (لقد سمى الطلبة

5 - البرازيليون هذه المقاطع قطعاً PIECES وليس هناك سبباً يرغمهم على أن يسموها مقاطع SYLLABLES شيئاً يجعلها متشابهة وشيئاً يجعلها مختلفة؟)..

وبعد لحظات تشاهد فيها المجموعة شريحة SLIDE فى صمت، يقول شخص كلها تبدأ بنفس الكيفية، ولكنها تنتهى بشكل مختلف..

ب - فى هذه اللحظة، يسأل المربى سؤالاً آخر: إذا كانت كلها تبدأ بنفس الكيفية ولكنها تنتهى مختلفة، فهل يمكننا أن نسميها كلها FA مرة أخرى صمت قصير، ثم لا NO.

وعند هذه اللحظة فقط، يقوم المربى وقد أعد المربى المتعلمين نقدياً للمعلومات، بتقديم المعلومات ولما كانت قد سبقتها مشكلة. فالمعلومات ليست مجرد هدية..

6 - ثم تأتى أسرة FAMILY المقطع الثانى للكلمة VA, VE, VS, VO, VU يكرر المربى العملية.. وفوراً يقول بعض المتعلمين VA, VE, VI, VO, VU.

7 ـ أسـرة المقطع الثـالث LA , LE , LI , LO , LU وتسمى الشـريحـة SLIDE شـريحـة الاكتـشـاف SLIDE OF DISCOVERY وهـو عبارة صـاغها الأستـاذ AURENICE CARDOSO مساعدنـا عندمـا أشرفنـا على إدارة المشروع القومى لتعليم الكبار فى البـرازيل NATIONAL PLANT FOR ADULT LITERACY IN BRAZIL يقتـرح المـربى قراءة أفقية وعمـودية للشـريحة SLIDE ويقـوى هذا فهم المتعلمين للأصوات المعتلة VOWEL . A , E , O , U SOUND ثم يسأل المربى المتعلمين هـل تعتقدون أننـا نستطيع أن نخلق شيئاً من هذه القطع ؟ .. (أبداً لا نقل هل تعتقد أنك تستطيع (YOU) .

هذه هى اللحظة الحاسمة للتعلم .. فهى اللحظة التى يكتشف فيها الذين يتعلمون القراءة والكتابة التركيز المقاطعى SYLLABIC COMPOSITIPON للكلمات فى لغتهم ..

وبعد الصمت المقلق DISCONCELYNG أحياناً للمربى الذى تعوزه الخبرة يبدأ المتعلمون واحداً واحداً، فى اكتشاف كلمات لغتهم وذلك بـوضع تـرميز المقـاطع مـع بعضها فى تـركيبات مختلفـة : يقـول أحـدهم FAVELA ويقـول آخـر FAVO , FALE , FQLO , VIVQ , VALA , VALE, LI , LUVA , FIVELA , CTE ... , FALAVA , VIVO , VIVE , . VEVLA , VELE , LAVA , VILA , FAVA , FE

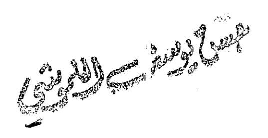
ولا يشكل COMBINE المتعلمون الكلمة التوليدية الثانية من

بينها وحسب بل بمقاطع الكلمة الأولى .. ومن ثم فما أن يعرف المتعلمون خمس أو ست كلمات توليدية حتى يستطيعون كتابة ملاحظات COMBINE مختصرة .. وعلى أى حال يستمرون فى نفس الوقت فى مناقشة البيئة الحقيقية REAL وتحليلها نقدياً كما هى مصورة فى الترميزات.

وهذا ما تعجز عن فعله الكتب الابتدائية PREMIERS.. ذلك أن مؤلفى الكتب الابتدائية ، كما أشرنا يختارون الكلمات التوليدية وفقاً لأهوائهم LIKING فهم الذين يفككونها DECOMPOSE وهم الذين يعيدون تجميع RECOMBINE مقاطعها لتكوين كلمات جديدة .. وبهذه الكلمات يطورون EVOLVE بأنفسهم العبارت التى تعكس ECHO تلك التى كنا قد اقتبسناها .

رأت أيفا العنب EVA VIU A UNA (EVA SAW THE GRAPE)

جناح الطير .. A QSA E DEE AUE (THE BIRDS WING)



الفهرس



المؤلف

كان الأستاذ (باولو فريرى) زميلاً بمركز دراسات التنمية والتغيير الاجتماعى وأستاذاً زائراً لدى جامعة هارفارد (الولايات المتحدة) بمركز دراسات التربية والتنمية . كما عمل مستشاراً خاصاً بمكتب التربية التـابع للمجلس الكنيسى العـالمى فى جنيف . وعمل فى تشيلى كمستشار بمعهد الإصلاح الزراعى للأبحاث والتدريب وكذلك أستاذاً بجامعة تشيلى . وقبل ذلك كان وزيراً للتربية ومنسقاً عاماً للخطة الوطنية لمحو الأمية فى البرازيل . .

صدر كتابه الأول فى البرازيـل عام 1967 م ، بعنـوان «**التربية كممارسة للتحرر**» وكان آخر كتاب له هو «**بيداغوجيا المضطهدين**» قام المترجم بنقله إلى العربية عام 1984 م، عن الطبعة الإنجليزية التى صدرت عام 1970 م . له أبحاث أخرى

متطورة فى التربية مثل «**الحرية فى أمريكا اللاتينية**» والذى نشر عام 1970 م ضمن دراسة بعنوان « حقوق الإنسان والتحرر فى الأمريكتين » وقد حرر مادته الأستاذ (لويس كولتز) ، ثم التقرير السنوى الذى أعده عن أنشطته عام 1968 م .



المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر